لقاء على الجسر القديم

رواية

صالح السنوسي



منشورات دار الافاق الجديدة المغرب

لقاء على الجسر القديم

الطبعة الأولى : 1992
رقم الإيداع القانوني 530 / 1992

لقاء على الجسر القديم

رواية

صالح السنوسي



منشورات دار الآفـاق الجديدة المغرب

الفصل الأول

الجسر القديم الممتد فوق نهر «ارنو» لا يبلغ طوله سوى ثلاثمئة متر. يبدو منحدرا نحو الغرب مرصوفا بحجارة مربعة الشكل، يصدر عنها صوت نحاسي كلما لامستها أرجل السائرين.

على جانبي الرصيف انتشرت مجموعات من البشر مختلفة في ألوان ملابسها وبشرتها ولغاتها، تبدو على معظمهم هيئة المسافرين؛ ومع هذا فإن بعض المجموعات الصغيرة بدا على أفرادها انهم مخضرمون ومقيمون على الجسر القديم اقامة شبه دائمة.

نهر «أرنو» الصغير ينساب من تحت الجسر في مسيرته البطيئة الأبدية نحو الشمال؛ لم يتبق للشمس في سباقها اليومي - سوى الربع الأخير من رقعة سماء زرقاء كسطح نهر «أرنو». اللون الأحمر هابط من الأفق في خيوط أرجوانية متشابكة فوق سطح النهر، بينما بدت اسطح البنايات البعيدة في الطرف الغربي لمدينة «فلورانس» غارقة في هالة من الضوء البنفسجي. في الزاوية القصية من الجسر الواقعة على يمين تمثال النهضة الذي يتوسط الجسر مجموعة صغيرة مكونة من ستة أشخاص يتكىء كل منهم على خرج يحتوي على ملابسه واغطيته وفرشه وحاجياته. وظهرت بين هؤلاء شخصية تميزت عنهم جميعا بطابع المرح والفكاهة. بدا أكبرهم سنًّا، فقد

تجاوز الثلاثين حسب كل ما يبدو من ظاهر لحيته الكثيفة التي تغطي كنة وجهه الممتليء، عيناه الزرقاوان واسعتان تتحركان في كل اتجاه، متقدتان بالحيوية والمرح، أسنانه تبدو تحت شاربه الكثيف بيضاء لامعـة مغروقة بعناية وكأن الطبيعة لم تصنعها لأي شيء آخر غير الابتسام والضحك، أنفه مدبب ومنخراه عابقتان أبدا برائحة التبغ المخدر؛ يضع ـ رغم حرارة شهر اغسطس ـ قبعة صوفية مخططة تغطي رأسه حتى منتصف أذنيه متوسط القامة جسمه ممتلىء حيوية ونشاطا، لا يكاد يستقر في مكان حتى يغادره إلى مكان آخر. يثرثر مع هذا وينـاكف ذاك يتكلم لغـة إيطالية طليقة وان بدت لهجته أجنبية عنها، يناديه افراد مجموعته باسم «بييترو».

عندما لمح «بييترو» هذا الشخص الجالس بمفرده تحت أحد أقـواس الجسر القـديم يدخن بشراهـة ونـظراته شاردة عبر الأفق الارجواني البعيد. اقترب منه «بييترو» وهو يقول له بلهجة خالية من التكلف :

ـ إيه أنت. ألديك سيجارة ؟

عنـدمـا أخـرج هذا علبة سجائره وشاهدها «بييترو» صاح ضاحكا وهو يقول :

ـ إنني لا أبحث عن هذا النوع من السجائر أيها المسكين.

فأعاد الشخص علبته إلى مكانها قائلا :

ـ إنني لا أتعاطى هذا النوع الذي تبحث عنه.

فقال «بييترو» وهو يهز محدثه من كتفه بتلطف :

ـ ومع هذا فإن ظاهرك لا يدل على شيء آخر سوى مظهر مدمن من الطراز الأول، فرد عليه صاحبه قائلا :

ـ هذا ما يدل عليه مظهري ولكن. .

قاطعه «بييترو» :

ـ أعرف. ومع هذا فإن المظهر في أوساط النساء ولدى كثيرين

من الرجال يعد عنصرا حاسما في أحكامهم على قيمة الرجل.
فقال هذا باسما :
ـ ولكنك لست امرأة ولا أتمنى أن تكون أحد هؤلاء الرجال الذين تتحدث عنهم.
نظر إليه «بيترو» بامعان ثم جلس القرفصاء مستندا براحتي يديه على ركبتي محدثه وقد اغراه النقاش.
قال «بيترو» :
ـ ما اسمك ؟
ـ توفيق.
قال «بيترو» معلقا وهو يهز رأسه :
ـ أنت عربي إذن.
ـ وهل كان الأمر محيرا بالنسبة إليك قبل معرفة اسمي ؟
ـ ليس بالنسبة إلي ولكن بعض قليلي الخبرة قد يتصوروا أنك من أمريكا اللاتينية.
ـ ولكنك لست قليل الخبرة.
قال «بيترو» ضاحكا وهو يهز أصبعه أمام وجه توفيق كمن يتوعد ولكن بطريقة كوميدية :
ـ إسمع أنا لست من أولئك الذين يعجبهم إطراء الآخرين.
قال توفيق دون أن يغير من لهجته التي تبدو جادة بالمقارنة بلهجة «بيترو» :
ـ إنني لا أطريك.
أمسك «بيترو» بكتفي توفيق واخذ يهزه تعبيرا عما يريد ان يقوله بطريقة أخرى، وبدا أن الرجلين كلاهما يقوم باكتشاف شخصية الآخر وكان واضحاً من لهجتهما ان كلاهما يسخر من صاحبه.

بعد برهة تساءل «بييترو» :

ـ ماذا تفعل في «فلورانس» ؟

ـ هذا سؤال بوليسي .

ـ ومن أدراك بأنني لست كذلك ؟

ـ لأنه لدى الايطاليين أعداداً كبيرة من الشرطة بما يجعلهم في غنى عن الاستعانة بصعاليك الجسر القديم !

انفجر «بييترو» ضاحكا وهو يقول :

ـ لديك حق . ومع هذا لو أنهم اتخذوا مني عميلا لكنت مفيدا لهم بشكل أو بآخر.

ـ هذا يجوز. ولكن ليس من عادة الشرطة أن تتعامل مع عملاء تعرف أنهم أذكى منها !

قال «بييترو» وهو يخرج كيس التبغ ثم قطعة صغيرة من المخدر :

ـ إن مزاحك لا يعجبني .

ـ ولكنني لا أمزح .

ـ كفى . . كفى ! قال «بييترو» وهو مشغول بتسخين قطعة المخدر بواسطة «ولاَّعته» استعدادا لخلطها بالتبغ ، ثم أضاف قائلا :

ـ لم أكن في حاجة لاجابتك ، لأنني أعرف لماذا أنت هنا ، ولماذا تركت بلدك ؟

ـ ولكنني طرحت عليك السؤال كنوع من المجاملة فقط !

قال توفيق ساخرا :

ـ لقد أخجلتني بمجاملتك هذه يا رجل !

رد «بييترو» على الفور :

ـ أشك في أن يجد الخجل إليك طريقا .

ثم انـطلق «بييترو» مقهقهـا على سجيته وقد فاحت رائحة المخدر وانطلق من منخريه عمودان من الدخان ضاعت نهايتهما في الفراغ الممتد خلف القوس الرخامي .

فرد توفيق :

ـ ولا سيما في مواجهة أمثالك .

قال «بييترو» وهو يستعيد أنفاسه :

ـ وإن فعلت ذلك فإنك ستخيب ظني .

ـ لا تتلكأ في الاجابة .

فرد «بييترو» :

ـ أستطيع أن أجزم بأنك خرجت من بلدك لأحد سببين لا ثالث لهما ؛ إما لكبت جنسي أو كبت سياسي ، أو لكليهما معا .

ـ ولما لا أكون مجرد سائح عربي .

قال «بييترو» وهو يلعق بلسانه أحد جوانب سيجارته لكي يمنع تسرب النار من جهة واحدة فقط :

ـ العرب لا تستهويهم السياحة كثيرا .

ـ أتمنى ألا يكون رأيك هذا انطلاقا من موقف معاد .

ـ لو قلت ذلك انطلاقا من موقف معاد لقلته بشكل مُبطَّن وبأقل صراحة من ذلك .

قال توفيق محاولا مناكفة «بييترو» :

ـ ومن أدراني ؟ فلربما ما تسميه صراحة كانت هي طريقتك لاخفاء ما تضمره ؟

وأحس «بييترو» بأن توفيق يريد مناكفته فقط فقال وهو يمسح بظاهر يده التبغ الملتصق بشفته السفلى :

ـ إنك تفهمني جيدا ولكن تحلو لك مشاكستي .

قال توفيق بلهجة جادة :

ـ لديك حق . العربي تتصارع في نفسه مجموعة من المكبوتات التي تجعله عاجزا عن التفكير في أي أمر آخر.

ـ إذن نحن متفقان، وعلى أية حال ؛ كل إنسان يجد نفسه مكبلا بتلك المكبوتات سيصيبه نفس العجز عربيا كان أو من سكان القمر.

قال توفيق محاولا كشف هوية جليسه :

ـ إنك تتحدث عن هذه الأمور بلهجة من هو قادم من بقعة يعيش فيها الانسان في مأمن من كل هذه المكبوتات.

قال «بييترو» وهو يهز رأسه ويتمهل في الاجابة حتى لا يفتح فمه فيضيع الدخان المخدر الذي سحبه لتوه :

ـ إنني قادم من بلد إنسانها مكبل حتى أخمص قدميه.

ـ ليست هناك بقعة واحدة فقط في العالم تنفرد بمثل هذه الصفة حتى يمكن معرفتها بسهولة ؛ ومع هذا فإنني بإمكاني أن أجزم بأنك قادم من بقعة ما في أمريكا اللاتينية.

سحب «بييترو» نفسا طويلا وأخيرا من عقب سيجارته حتى لسعت النار شفتيه فلعقهما بلسانه وهو يقول :

ـ عفوا ؛ إنها كلفتني كثيرا هذه السيجارة ولهذا لا أريد أن أتركها وفيها رمق حياة.

ثم أردف :

ـ إنني من مواليد الارجنتين واختارت لي والدتي اسم «بييترو» ولم يعترض والدي على ذلك فصار اسما نهائيا لا يجد فكاكا مني. ثم طفق «بييترو» يضحك وبدت ضحكته هذه المرة طويلة وغير تلقائية.

ـ ربما سيكون أقل حظا لو حمله شخص آخر غيرك.

قال «بييترو» وهو يزيح طرفي قبعته الصوفية من على اذنيه

فكشف عن ذوائب شعره الأسود الطويل :
ـ الاسم المحظوظ لدينا هناك : هو الاسم الذي يحمله جنرال في الجيش.
قال توفيق وقد وجد موضوعا آخر يمكن أن يتشعب فيه نقاشهما :
ـ لو أنك ذهبت إلى جزيرة «مالوين» لربما أصبحت الآن جنرالا !
قال «بييترو» وقد فهم ما يعنيه توفيق :
ـ لقد ذهبت إلى تلك الجزيرة منذ خمسة عشرة سنة واحتسيت الجعة على الشاطىء وسبحت بالقرب من ميناء «سانت لي».
قال توفيق ضاحكا :
ـ يبدو أنك متعود على استجوابات الشرطة.
فقاطعه «بييترو» وهو يخزه بسبابته في صدره :
ـ وأنت أيضا !
قال توفيق وهو يتصنع الغضب في لهجته :
ـ لماذا تحاول أن تختلق شجارا في كل مرة لا يروق لك فيها سؤالي ؟
ـ لأنك تطرح أسئلة تعرف إجابتها مقدما ولا تقصد فيها سوى إحراجي !
فرد توفيق دون أن يغير لهجته السابقة.
ـ إنني سألتك ما إذا كنت قد ذهبت للقتال ضد الانجليز في جزيرة «مالوين» أم لا. فما وجه الحرج في هذا السؤال ؟ ثم من أين لي أن أعلم الاجابة ؟
وأردف توفيق بإلحاح وكأنه يستجوب «بييترو» :
ـ هل ذهبت ؟

قال «بييترو» مجيبا وهو يحك ذقنه بسبابته اليمنى ويده اليسرى مشغولة باخراج كيس التبغ :

ـ نعم لقد ذهبت في نفس اليوم الذي ذهبت فيه أنت لقتال الاسرائيليين في ضواحي بيروت !

قال توفيق بلهجة بين الجد والهزل :

ـ لا أعتقد انك كنت على هذا القدر من السوء منذ ولادتك .

فرد «بييترو» ويداه تعملان تلقائيا في اعداد لفافة التبغ وتسخين قطعة المخدر :

ـ بالطبع يا صديقي . لقد أصبحت على ما أنا عليه بعد ذلك اليوم بسنوات طويلة .

وجرت لحظة صمت اكمل فيها «بييترو» اعداد لفافته ووضعها بين أصبعيه ونظر إليها بعين الرضاء ثم أضاف قبل أن يشعلها :

ـ أعتقد أن كلانا قد خيب ظن الآخر ؛ فلقد ظننت أنت في البداية بأنني أسوء مما وجدتني عليه حقيقة فيما بعد ، ووجدتك أنا أكثر سوءا مما توقعت ! في بداية حديثنا .

وانفجر «بييترو» ضاحكا لكي يحتفظ بجو المرح والمزاح بينهما .

لم يعلق توفيق بشيء واخرج علبة سجائره وتناول سيجارة على مهل بينما اشعل «بييترو» سيجارته وسحب منها نفسا ثم قال وهو يقدمها لتوفيق :

ـ عفوا لقد تعودت أن لا أتقاسم السيجارة الأولى مع أحد أما هذه فبامكاننا ان ندخنها معا .

ـ أشكرك . ولكنني انقطعت عن تدخين هذا النوع منذ أمد ليس قصيرا .

قال «بييترو» بلهجة ارتياح :

ـ حقا.

ـ نعم. هي لك بالكامل.

نهض «بييترو» فجأة وهو يقول :

ـ عفوا سأتركك. لأن «ستيفانو» و«ماتيلدا» و«مارتا» و«ماريو» ينتظرون نصيبهم من السيجارة.

ثم قفز يعدو نحو رفاقه رغم أن المسافة التي تفصله عنهم ليست سوى عدة أمتار، ولكنه كان في سباق مع النار التي كانت تلتهم أغلى سجائر الجسر القديم. .

بينما ظل توفيق جالسا في مكانه وقد بدا له «بييترو» شخصية متعددة الجوانب وأكثر عمقا مما كان يتصورها في السابق ؛ فقد كان خلال المرات السابقة يرى «بييترو» كلما حضر إلى الجسر القديم، فيجده محاطا بعدد من رفاقه يدخنون ويحتسون نوعا من النبيذ الأحمر الرديء والمفضل لدى غالبية رواد الجسر القديم، نظرا لرخص ثمنه وقرب الحانة المتخصصة في بيعه، والتي تقع في «بياتزا سانت سبيريتو»، حيث تظل مفتوحة حتى ساعة متأخرة من الليل. ويترك الجميع الزجاجات الفارغة متناثرة على جنبات الجسر ؛ الأمر الذي كثيرا ما أدى إلى مصادمات كلامية بين مجموعة «بييترو» وأفراد الشرطة السياحية التي تسهر على نظافة الجسر القديم، غير أن أصدقاء «بييترو» يتغيرون باستمرار لأنهم ليسوا مستقرين مثله. فهم عابرو سبيل يقيمون على الجسر القديم بضعة أيام ثم يرحلون كغيرهم من مئات الآلاف الذين يزورون «فلورانس» فيمرون بالجسر القديم ولا يستطيعون مقاومة الرغبة في التوقف والجلوس لتدخين سيجارة واحتساء شيء من الشراب أو للتطلع إلى نهر «ارنو» الصغير من خلال فتحات الجسر المقوسة والمطلة على النهر من ناحيتي الجنوب والشمال.

أما أصدقاء «بييترو» فقد تستمر اقامتهم على الجسر لعدة ايام وليال ولكنهم في النهاية يرحلون فيودعهم «بييترو» شادا على ايديهم باسـما وغـامزا بطرف عينه متمنيا لهم رحلة سعيدة ثم يتراجع إلى الوراء قليلا فيستند إلى حافة الجسر ناظرا إليهم وهم يبتعدون وعيناه مفتوحتان بابتسامة لا تستطيع أن تخفي ما فيهما من خيبة رجاء.

وفي اليوم الثاني يجده توفيق متوسطا مجموعة جديدة ينادمهم وكأنهم أصدقاء الأمس، وإذا ما أحس «بييترو» بالوحدة فإنه يثرثر مع كل من يمـر فوق الجسر ويحلو له كثـيرا منـاكفة من يسميهم «بورجوازيي فلورانس» وهم من يدل مظهرهم على أنهم من سكان المدينة الميسوري الحال والذين يأتون عند الأصيل في نزهة روتينية فوق الجسر وهنا يتصدى لهم «بييترو» فيناكف بعضهم ويسخر من بعضهم الآخر ولكن بطريقة لبقة يندر أن تغيظ أحدهم.

تمنى توفيق أن يعود إليه «بييترو» بمجرد أن ينتهي من تدخين سيجارته مع أصدقائه، غير أن «بييترو» حلا له الحديث مع أفراد مجموعته ولربما نسي أنه كان يتحدث قبل قليل مع شخص آخر؛ وفجـأة علا النقـاش باللغة الاسبانية بين «بييترو» و«مارتا» احدى فتيات المجموعة. قالت «مارتا» بلهجة لا تخلو من سخرية:

ـ ألم تمل ترديد هذا الكلام؟

فرد «بييترو»:

ـ ولكن هذه أول مرة أقول فيها لك مثل هذا الكلام.

قالت «مارتا»:

ـ أقصد أنك لم تمل ترديده على مسامع النساء.

ـ ومن أدراك أنني سبق وان قلت هذا الكلام لغيرك؟

قالت «مـارتـا» وهي تزيح إلى الخلف بكلتـا يديها شعرها الأسود الذي بدأت تتلاعب به نسمة نشطت فجأة فوق الجسر:

ـ لأنه مرت قبلي آلاف النساء فوق هذا الجسر وأنت رجل حساس ولسانه طويل وكلماته دائما حاضرة.

قال «بييترو» وهو يضرب بقبضة يده على حافة المربع الرخامي المحيط بتمثال النهضة :

ـ هذا محض تصور.

فردت «مارتا» بلكنتها الأمريكية :

ـ ولكنه انطباع قوي يتبادر إلى الذهن منذ اللقاء الأول بك.

أطرق «بييترو» قليلا ثم قال :

ـ حتى وإن صح ما تقولينه فإنها هذه أول مرة أقول فيها هذا الكلام بصدق.

ـ ومن أدراني أنك صادق ؟

ـ ومن أدراك أنني كاذب ؟

انفجرت «مارتا» ضاحكة حتى اغرورقت عيناها الزرقاوان بالدموع ثم قالت وهي تسعل ويدها ترتعش قابضة على عقب السيجارة المخدرة :

ـ إنني اعترف بأنك مجادل لا يمكن الانتصار عليه.

قال «بييترو» وهو يطأطىء رأسه إلى أسفل :

ـ انني لا أهنيء نفسي على ذلك.

قالت «مارتا» وهي تهزه من كتفه :

ـ هذه ميزة يحسدك عليها الكثير.

قال «بييترو» على الفور وهو يشير بيده نحو أحد أفراد مجموعتها :

ـ على أية حال ليس من بين هؤلاء «استيف».

وانفجرت «مارتا» ضاحكة وقد فهمت ما يعنيه «بييترو» . .

كان «بييترو» يعني «استيف» الشاب الطويل القامة ذا الشعر

الأشقـر المنفـوش على كتفيه وعـازف القيتارة الوحيد في المجموعة والذي يبدو أن «مارتا» تفضله على «بييترو» وتميل قلبيا إليه أكثر.
وأضاف «بييترو» :
ـ الانسان المجادل صفة لها من المساوىء ما لا تجعل انسانا يحسد عليها آخر.
ـ إنني لا أرى لها أية مساوىء.
ـ إنها كثيرة يا صديقتي.
قالت «مارتا» وهي يدفعها حب الاستطلاع :
ـ قل لي واحدة على سبيل المثال.
قال «بييترو» وهو يفتح راحة يده ويمدها إلى الأمام لتبسيط ما يريد أن يقوله :
ـ مثلا : الجدل في بلدان العالم الثالث كثيرا ما يؤدي بصاحبه إلى السجن أو المقبرة، والرجل المجادل ـ كما تعلمين ـ ليس مرغوبا كثيرا في أوساط النساء.
فعادت «مارتا» تهزه من كتفه بشيء من العنف دون أن تفارق شفتيها الابتسامة.
بينـما ظلت عينا «بييترو» مغروزتين في الارض وتتصارع في نفسه بحدة مشاعر رجل عاجز عن جعل امرأة تحبه ؛ ثم أخذ يعبث بكيس التبغ يقفله ويعيد فتحه وينظر إلى محتواه ويقفله مرة أخرى في حركة عفوية لا يدل ظاهرها على معنى ولكنها مليئة بمعان تصرخ في أعماق «بييترو» وتدرك «مارتا» أبعادها تماما.
عندما اجتاح جلستهما الصمت وصار ثقيلا وضعت «مارتا» كفها على مقدمة رأس «بييترو» محاولة رفعها إلى أعلى ثم قالت :
ـ لماذا هذا الصمت ؟
نظر إليها «بييترو» وهو يداري مشاعره خلف ابتسامة باهتة :

ـ هذا شيء طبيعي يا صديقتي، فعندما لا تلتقي رغبة رجل برغبة امرأة فإن الصمت يغدو هو صاحب الكلمة الأخيرة.

فأخـذت «مـارتـا» تهز رأسها في حيرة بينما عاد «بييترو» إلى وضعـه السابق محدقا إلى أسفل متحاشيا أن تلتقي عيناه المترعتان رغبة بعيني «مارتا» اللتين لا تحملان له سوى خليط من الاعجاب والعـطف؛ وهـو أمر يصعب احتماله على أي رجل يجد نفسه في الموقف ذاته.

فجـأة قفـزت «مـارتـا» نحـو خرجها المسند على الرصيف واخرجت منه لوحة وورق أبيض مقوى من النوع الذي يستخدمه الرسامون ثم عادت وجلست في قبالة «بييترو» وهي تقول:

ـ دعني أرسمك.

ـ وما الداعي إلى ذلك؟

ـ لدي رغبة كبيرة في ذلك.

ـ ألا تستطيعين مقاومة رغباتك؟

هزت «مارتا» كتفيها حتى كادت أن تختفي بينهما رقبتها وتكوم شعرها الأسود الطويل حتى صار كهرم صغير مائل إلى الخلف ثم قالت:

ـ لا أستطيع!

ـ لديك حق. من الصعب أن يقف الانسان ضد رغباته.

ثم هز رأسه وهو يقفل كيس التبغ ويضعه جانبا واردف قائلا:

ـ أما الجحيم هو أن يقف ضدها الآخرون.

قالت «مارتا» وهي تدق بيدها على لوحة الرسم التي تضعها في حجرها:

ـ إنني لا أريد أن أجادلك. أريد أن أرسمك.

ـ ثم ماذا؟

ـ ثم أهديها إليك.
قال «بييترو» وأرنبة أنفه ترتفع إلى أعلى :
ـ إنني ذقت ذرعا من حمل الصورة التي خطتها أصابع الطبيعة فوق جلدي وشدتها إلى عظامي بعروق وأعصاب، فكيف تريدين مني أن احتمـل رفقة صورة اخرى مماثلة لها، ولكنها مرسومة على قطعة من الورق بحيث يمكنها مطالعتي في كل لحظة دونما حاجة إلى المرآة!
قالت «مارتا» محاولة قطع ذريعته :
ـ إذن سأحتفظ بها لنفسي.
ـ كما تشائين، ولكن لا أظنها ستكون مدعاة لمسرتك.
ـ هذا أمر يخصني أنا وليس من حقك الحكم عليه.
ـ هذا صحيح، ولكن باستطاعتي القول بأنه إذا كان الأصل لم يكن فيه ما يسر مرآك فكيف يكون حال الصورة.
ـ إنك محصور داخل مدار ضيق لا تريد الخروج منه.
ـ أريد ولكن ليس باستطاعتي.
قالت «مارتا» بلهجة من يردد شيئا حفظه على ظهر قلب :
ـ الإرادة هي مقدمة الاستطاعة.
قال «بييترو» ويداه تتوقفان عن حركة لف السيجارة :
ـ من أين تعلمت إبداء النصائح السيئة.
قالت «مارتا» بنرفزة :
ـ لماذا تنصب من نفسك حكما على ما يأتي به غيرك من أقوال وأفعال.
قال «بييترو» وهو يشعل سيجارة غير مخدرة هذه المرة :
ـ أبدا إنني لا أبدي رأيا في أقوال الآخرين وأفعالهم إلا إذا كنت أنا المقصود بذلك.

ـ إستعد سأبتدىء عملي دون مزيد من النقاش.
ـ لا أمنعك عن ذلك ولكن شريطة ألا تحدين من حريتي في الحركة.
قالت «مارتا» وهي تضع رأس القلم في أعلى الورقة :
ـ ولكن لا أستطيع أن أجري خلفك من مكان إلى آخر.
ـ لو أنصفت لفعلت ذلك..
فردت «مارتا» وقد أدركت ما يعنيه «بييترو» :
ـ أعرف أنه ليس هناك رجل آخر على هذا الجسر يستحق أن تجري خلفه امرأة أكثر مما تجري خلفك أنت، ولكنني لست كالآخريات.
ـ ومع هذا فإنني لم أجد فرقا بين نظرتك أنت ونظرة الأخريات إلى الرجال.
ـ وكيف هي نظرة الأخريات إلى الرجال ؟
ـ لا أفضل قول هذا لأنه سيزعجك كثيرا.
ـ لا لن يزعجني حتى وإن كان ٱدعاء منك.
ـ بالطبع ستجادلين في صحته حتى وان كان حقيقة.
ـ إذن تريدني أن أسلم به مسبقا كحقيقة ثابتة.
قال «بييترو» معاندا :
ـ إنني لا أريد أن أقوله، هذا كل ما في الأمر.
قالت «مارتا» وهي تضع اللوحة في حجرها وتدق بيدها فوق ركبتي «بييترو» المنثنيتين :
ـ ولكنك ستقوله.
قال «بييترو» وهو يمرر يده على وجنتيه وكأنه ينظفهما من الغبار :
ـ ألا تزال لديك الرغبة في رسم لوحة لي.

ـ بالطبع .
ـ وماذا تنتظرين ؟
ـ حتى تخبرني بوجهة نظر المرأة في الرجل .
قال «بييترو» وهو يفتح راحة يده في الهواء ويضحك ضحكة هي خليط بين السخرية والعفوية :
ـ ولكنني حسب علمي لست امرأة .
أخذت «مارتا» تضحك على سجيتها وهي تقول :
ـ ولكنك تدعي معرفة رأي المرأة في الرجل .
قال «بييترو» وهو يضع يده على كتف «مارتا» حتى غاصت أصابعه ـ من وراء قميصها ـ في جسمها البظ فعبر بذلك عن رغبة يقاومها بصعوبة :
ـ إنك في حقيقة الأمر تريدين معرفة رأيي أنا في المرأة وليس رأي المرأة في الرجل .
ـ لقد قلت لك منذ البداية انه لا قبل لي بمجادلتك .
ـ وأنا ايضا لست مُصرا على مجادلتك .
تناولت «مارتا» اللوحة مرة أخرى وهي تقول :
ـ إذن سأواصل الرسم .
وأخـذت يدا «مـارتـا» تجريان صعـودا وهبوطا على صفحة الورقة ، بينما ظل «بييترو» يتشاغل بمداعبة كيس التبغ وينظر إلى «مارتا» كلما تحولت نظراتها إلى الورقة ويخفض من نظراته كلما رفعت «مارتا» رأسها ناظرة إليه ؛ وبعد هنيهة توقفت «مارتا» قائلة بصبر نافذ :
ـ يلزمـك أن تمتنـع عن تحريك رأسك يمينا وشمالا وان لا تغوص بنظراتك إلى أسفل . يجب ان تتجه إلي كلية ، وإلا ما فائدة جلوسك أمامي .

قال «بييترو» وهـو يحك رأسه فتخللت أصابعه شعرة رافعة طرف طاقية الصوف إلى أعلى :

ـ نعم . لديك حق ، أنا أيضا لا أرى له فائدة .

عادت «مارتا» إلى عملها دون أن ترد بشيء ولكنها بعد قليل اضطرت ان تصرخ في وجه «بييترو» :

ـ أرجوك أن تنظر إلى هنا ولا تهتم بما يجري حولك .

ـ أخشى أن تزعجك نظراتي .

ـ إسمع : دعك من هذا الهراء .

كان «بييترو» يحاول قدر جهـده أن يداري عينيه المترعتين رغبة ، ثم قال محدثا نفسه بصوت منخفض لم تسمعه «مارتا» :

ـ يا له من موقف تعس .

ولم تفهم «مارتا» بماذا يتمتم «بييترو» فعاد الصمت مرة أخرى وانهمكت هي في رسم لوحتها . بينما ارتفع في الناحية القريبة منهما صوت العزف على القيتارة . كان العازف هو «استيف» وأحاط به عدد من الفتيات والشبان فبدا «استيف» في وسطهم بارزا بقامته الفارغة رغم أنه كان يجلس متربعا . لم يكن تجمع هؤلاء حوله راجعا لاعجابهم بعزف «استيف» ولكن لمجرد حب الاستطلاع ولتمضية الوقت ، فالجميع يعرف أن «استيف» عازف سيء وأولهم «بييترو» ولكنه لا يريد أن يقول ذلك خشية ان تفسره «مارتا» على انها مجرد غيرة منه فقط .

فجأة توقف العزف وصاح افراد المجموعة ومعهم «بييترو» مهللين :

ـ لقد حضر «كازانوفا»

بدا «كـازانـوفـا» متـوسط القـامة أبيض البشرة شعره اكرد كستنـائي انفه قصير معقوف ، شاربه كث الشعر ، عظمتا وجنتيه

بارزتان، جبهته معقودة رغم انه تلوح على محياه شبه ابتسامة دائمة. يبدو مقبول الهيئة عموما ولكنه بكل تأكيد ليس فيه ما يلفت نظر امرأة تبحث عن رجل وسيم. اسمه الحقيقي «باولو» ولكن لا أحد يناديه بهذا الاسم. فالجميع ينادونه «كازانوفا» لشدة ولعه بالنساء. اما «بييترو» فيناديه «كازانوفا الجسر القديم» فعلى الجسر القديم يقضي «باولو كازانوفا» سحابة يومه يغازل الفتيات السائحات.

أشار «كازانوفا» بيده نحو «بييترو» محييا ثم جلس فاختفى وسط المجموعة وعاد «بييترو» إلى وضعه السابق مستسلما أمام نظرات «مارتا».

الفصل الثاني

لم يكن مقهى الجسر القديم مقفولا فاليوم ليس يوم الجمعة وهذا أمر لا يعرفه سوى مخضرمي الجسر القديم، فوجد توفيق رجليه تقودانه إليه كالعادة كل يوم بعد الساعة الخامسة مساء ؛ حيث تختفي الشمس خلف أحد عمودي القوس الذي ينتصب في مواجهة المقهى فتتسع منطقة الظل لتشمل عددا من الطاولات المنتشرة أمام المقهى.

لم يجد توفيق مكانا شاغرا في هذا الجزء الظليل المفضل لديه، فجلس إلى احدى الطاولات المعروضة للشمس. لم يلفت نظره شيء لحظة جلوسه ولكنه حينما استراح في مقعده وأخذ يجيل نظراته في من حوله لفتت نظره المرأة الجالسة عن يمينه مولية ظهرها إليه. ورغم أنه لم ير وجهها، فلم يكن ظاهرا له منها سوى كتفيها وجديلة شعرها الشقراء المعقوصة والمتدلية فوق كتفيها على عدة ثنيات، إلا أنه أحس بأنه يجلس خلف امرأة ذات جمال يلفت النظر. كانت منهمكة في قراءة كتاب سياحي حول «فلورانس» واستطاع ان يميز بعضا من سطوره باللغة الانجليزية ففهم من ذلك أنها سائحة.

لم توله أي اهتمام، او ربما لم تره عندما جلس خلفها، فاستمرت في تقليب صفحات كتابها بينما انطوى هو على نفسه محاولا تناسي وجودها وان كان يصعب عليه مثلما يصعب على كثيرين غيره تجاهل مثل هذه المرأة الجالسة أمامه. اعتقد أنها في انتظار شخص ما ؛ وانها تتلهى بمطالعة الكتاب لحين قدومه، وذهب في تخميناته

إلى حد الجزم بانها تنتظر رجلا . واشتعلت نفسه غيرة من هذا الرجل الذي لا يعرفه، وهجمت على رأسه تساؤلات كثيرة حول غريمه الموهوم، فتصوره أحد رجال الأعمال الأمريكيين الذين يأتون إلى «فلورانس»، في هذه الفترة من الصيف ويسكنون في «فندق الجسر» الفخم ؛ وتوقع أن تمر بعد فترة وجيزة سيارة زرقاء فارهة تتوقف أمام المقهى وتنهض هي مسرعة نحوها فتفتح الباب الخلفي لتركب، فيرى هو في المقعد الخلفي رجلا وسيما، وخط الشيب شعر رأسه، يرتدي بدلة زرقاء ويدخن سيجارا . لكنه لم يجد في مثل هذا الرجل ما يلائم ذوق هذه المرأة التي تبدو متمردة ومهملة المظهر. فقال في نفسه : لابد أن يكون شابا رياضيا طويل القامة اشقر الشعر سيصل عما قليل على دراجة نارية، يصم هدير محركها آذان كل الموجودين في المقهى وستهرع هي نحوه ثم تقفز خلفه، وتنطلق الدراجة بأقصى سرعة لتختفي في لمح البصر من الشارع فيفرح الجميع ـ ما عدا هو ـ لرحيلها وعودة الهدوء إليهم.

وسخر من انشغاله بمثل هذه التصورات ولم يستطع أن يمنع نفسه من ابتسامة لم تلفت نظر أحد آخر غير «باميلا» خادمة المقهى المسنة فاقتربت منه قائلة وهي تشير نحو المرأة :

ـ إنها جميلة اليست كذلك يا بني ؟

فهز رأسه بالإيجاب ! وابتعدت «باميلا» لتنظيف الطاولة المجاورة التي خلت من زبائنها، ثم عادت إليه مسرعة وقطعة الفلين في يدها تقطر ماء دون أن تكمل تنظيف الطاولة وكأنها تحمل إليه خبرا هاما لا يحتمل الانتظار واقتربت منه حتى كادت شفتاها تلتصقان بأذنه وهي تقول له :

ـ إنها أمريكية.

قال محاولا مجاراتها على نفس طريقتها واضعا شفتيه بالقرب من أذنها :

- كيف عرفت ذلك ؟

قالت وهي تضع قطعة «الفلين» في يدها اليسرى وتستند بيدها اليمنى على حافة الطاولة وتقترب من وجهه هذه المرة :

- لقد مضت علي خمس عشرة سنة في هذا المقهى تمر علي يوميا كل أجناس الأرض.

هز رأسه موافقا على ذلك ولكنها ما كادت تبتعد حتى عادت لتقول له وهي تقلب شفتيها بنوع من الامتعاظ :

- إنها لا تبدو امرأة اجتماعية.

لم يعلق توفيق بشيء وانسحبت «باميلا» لتنشغل بالثرثرة مع زبائن آخرين ؛ وفي هذه اللحظة شاهد المرأة تقفل صفحات الكتاب على عجل وتضعه في حقيبتها ثم تنهض فتمكن من رؤية تفاصيلها. كانت أطول قامة مما تصورها وهي جالسة ؛ لوحت الشمس وجنتيها المتوردتين فبدأتا تحت شعاع الأصيل الذي تسلل إليها عبر فتحة ضيقة بين العمارتين المتقابلتين في شارع «فياغويشارديني» وكأنهما خليط من عجينة الذهب والطين.

تتدفق من خضرة عينيها حيوية وبريق حادان بينما بدآتا له في عمقهما ضاحكتين دامعتين. ترتدي بدلة زرقاء من النوع الذي يرتديه عمال الورش والمصانع ورغم أن مظهرها يبدو مهملا لا ينال ادنى عناية منها إلا أن هذا التناقض بين الاهمال التام من جانبها بمظهرها وعناية الطبيعة البالغة في صنع جمالها اضاف عنصرا آخر جديرا يشد الانتباه إليها أكثر مما لو كان هذا التناقض غير موجود.

لم يكن في انتظارها شيء من الذي كان يتصوره توفيق قبل قليل بل فوجيء بها تسحب دراجة عادية كانت مسندة في مواجهة

المقهى واستغـرب هو عدم انتبـاهه لوجود هذه الدراجة رغم انها كانت تقف في مواجهة المقهى ظاهرة للعيان.

اقتادت دراجتها ثم توقفت امام باب الكشك المقابل وسألت بائع الكشك عن شيء، ثم قفزت بعد ذلك فوق دراجتها وانطلقت بها عبر شارع «فياغـويشيارديني» حتى اختفت عن انظار توفيق. واحس بارتياح يجتاح كيانه لرحيلها وحيدة هكذا دون ان يأتي رجل يلف ساعده حول خصرها ويذهب بها من أمامه.

خرجت «باميلا» لتنظيف الطاولة التي خلت وتوقفت بجانب توفيق وهي تضع يدها في خصريها قائلة :

ـ لقد ذهبت.

فرد هو باقتضاب :

ـ إنها رائعة.

فهزت «باميلا» كتفيها قائلة :

ـ إنها وحدها.

قال توفيق ضاحكا :

ـ هذا أراحني أكثر.

وهنا وخزته «باميلا» من كتفه بطريقة إيطالية معروفة :

ـ إياك أن تكون قد وقعت في غرامها !

ـ لا. ولكنني كنت أحاول رسم صورة الرجل الذي يحظى بعواطف هذه المرأة.

ـ وهل توصلت إليه ؟

قال توفيق وهو يتمهل في احتساء ما تبقى من قهوته :

ـ لقد تصورته تارة غنيا وتارة موهوبا وتارة أخرى وسيما ولا أدري أي هذه الصفات تنطبق عليه.

قالت «باميلا» وهي ترسم بسبابتها علامة النفي :

ـ قطعا إنك لم توفق، لأن تصوراتك لم تخرج عن دائرة المألوف.

ثم اقـتربت منـه أكثر وفتحت كلتا يديها وكأنها في طريقها لتبسيط مسألة معقدة وأضافت قائلة :

ـ إن امرأة تلفت أنظار الرجال كهذه، لا تختار إلا رجلا لا يتصور أحد من الرجال الآخرين ان تختار مثله.

وهز توفيق رأسه موافقا ثم تململ في جلسته، ولم يخف عن فهم «باميلا» ـ التي قضت خمسة عشر عاما تثرثر مع الزبائن ـ ان توفيق يفضل ان يتوقف النقاش عند هذا الحد.

الفصل الثالث

منذ ساعة تقريبا عاد الجسر يضج بالحركة فأخذت تسير فوقه آلآف الأقدام، وجلست عليه عشرات المجموعات من البشر فما بين الساعة الثانية والخامسة تتعامد الشمس فوق الجسر وتشتد القيلولة فيهجره معظم رواده ولا يتبقى إلا نفر قليل من الشباب الذين تستهويهم حرارة الشمس والفتيات اللائي لديهن استعداد لتحمل هذا القيظ ليظفرن ببشرة برونزية. وتظل هناك زاويتان تتبادلان بالتناوب منطقة الظل فوق الجسر في ما بين الساعة الثانية عشرة والثانية بعد الظهر، فالزاوية الشرقية من الطرف الجنوبي للجسر تتمتع بظل يدور حوله صراع الجالسين لأنها يحميها من جهة الشرق جدار أحد محلات الذهب الشهيرة، ومن ناحية الغرب ينحني فوقها القوس الأوسط بعموديه الكبيرين.

وفي هذه الساعة ينتقل «بييترو» بخرجه إلى هذه الزاوية حيث يجلس في مكانه المفضل بجانب القوس مسندا رأسه إلى عموده الكبير ناظرا إلى تزاحم الآخرين الذين يتواجدون حول ما تبقى من منطقة الظل، وعندما يرى البعض يطوفون حول المكان ولا يجدون مجلسا يصيح معلقا :

- من يشتري مني هذا المكان في مقابل ثلاثين الف ليرة وعشاء في مطعم «مندران» وخمسة غرامات من الهيروويين؟

وحينما تقترب الساعة من الثانية والنصف يأتي دور الزاوية الغربية من الطرف الشمالي للجسر القديم فتصبح هي المكان

الظليل الوحيد في الجسر غير أن «بييترو» يطلق عليها اسم الزاوية التعسة لأنها أقل اماكن الجسر نظافة حيث يوجد فيها جزء مخصص للقمامة ولذلك فهي لا تتمتع بشعبية الزاوية الشرقية التي تبدو أكثر نظافة وانشراحا ومعظم الفتيات اللائي يجلسن فيها هن أكثر انفتاحا وقابلية لأحاديث الغزل، كما أن معظم متعاطي المخدرات يفضلون تدخينها في الزاوية الشرقية بيد أن بائعي المخدرات يفضلون اجراء صفقاتهم في الزاوية التعسة.

أما «بييترو» فلا يضع رجله ابدا في الزاوية التعسة وعندما تحاصره الشمس في زاويته المفضلة وتعوزه حيلة البقاء يحمل خرجه ويرحل إلى «غاليري دي لوفيسي» الشهيرة بمتحفها الذائع الصيت، فيبقى هناك تحت الأقواس الظليلة حتى ينتصر الظل على الشمس ويسيطر على الجزء الشمالي من الجسر القديم، عندها يضع خرجه على كتفه مرة أخرى ويعود ادراجه إلى الجسر عبر أقواس شارع «آن ماري ديميديشي»، ويعلم جميع من على الجسر بوصوله قبل ان يروه وذلك حينما يسمعون صوته ضاحكا أو معلقا على احد الباعة الذين يعرضون بضائعهم المصنوعة يدويا على الناحية الشرقية من الجسر.

عندما وصل توفيق إلى الجسر كانت قد مضت أكثر من ساعة تقريبا على عودة «بييترو» إلى الجسر القديم تبادل خلالها الأحاديث العابرة والتعليقات مع بعض المارة وبعض الجالسين.

كان «بييترو» منهمكا في مشادة طريفة مع احد زوار الجسر والذي يبدو من هيئته انه ممن يسميهم «بييترو» «بورجوازيي فلورانس» والذين تحلو له مناكفتهم اكثر من غيرهم. بدأت المشادة بين الاثنين عندما توجه «بييترو» بطلبه إلى الرجل الأنيق المظهر الواقف على حافة الجسر بين فتاتين :

ـ سيدي هل بإمكانك أن تقرضني خمسمائة ألف ليرة حتى يوم الغد ؟

فرد عليه الرجل قائلا :

ـ لماذا لا تقول نصف مليون ليرة ؟

قال «بييترو» وهو يقترب منه أكثر ويرفع من صوته أكثر حتى لا يفوت الجالسين شيئا من تفاصيل الحوار :

ـ لقد أردت أن أخفف على مسامعك ثقل وقع الرقم فمن أدراني أن قلبك يتحمل الصدمات .

قال الرجل محاولا مجاراة «بييترو» :

ـ أما أنا فبت متأكدا بأن عقلك ليس سليما وإلا ما كنت لتطلب مني هذا المبلغ .

ـ ولكن مظهرك يا سيدي يدل على أنك تملك أضعاف هذا المبلغ .

ـ ولكن من يتجرأ على حمل مثل هذا المبلغ ليسلمه لك على الجسر القديم .

قال «بييترو» باسطا يديه أمام محدثه لتبسيط الموضوع :

ـ إنني أقبل صكا بهذا المبلغ . . .

فرد الرجل وهو يدفع بالفتاتين أمامه :

ـ إذا أعطيتك صكا بمثل هذا المبلغ وذهبت انت به إلى المصرف، اخشى ان لا يدل مظهرك على انك المالك الحقيقي له ؛ وعندها سأكون مضطرا للبحث عنك في أحد مراكز الشرطة .

وانسحب الرجل منتشيا بانتصاره دون أن ينتظر رد «بييترو» .

فأخذ «بييترو» يصفق له ويحث الآخرين صائحا :

ـ صفقوا له بحرارة . لقد قام بدوره خير قيام .

وعندما انتهت عاصفة التصفيق واختفى الرجل جلس

«بييترو» مسندا رأسه إلى سياج الحديد المحيط بتمثال النهضة، وما أن شاهد توفيق يسير بخطوات متباطئة صاعدا الجسر من جهة الغرب حتى صاح به مناديا اياه باللقب الذي تعود ان يناديه به كلما رآه قادما من بعيد :

ـ تعال اجلس بجانبي أيها الهندي الأحمر.

ولم ينتظر «بييترو» حتى يصل توفيق إليه بل نهض والتقى به في منتصف الطريق ووضع يده على كتفه محاولا جره معه إلى حيث كان يجلس ثم قرب فمه من اذن توفيق وكأنه يريد أن يفشي له بسر :

ـ اكتشفت سر اهتمام الكثير من النساء بك، فهذا راجع إلى كونك اقرب إلى الهنود الحمر شكلا منه إلى العرب ؛ والنساء بطبيعتهن يستهويهن البحث عن الأجناس المنقرضة أو التي في طريقها إلى الانقراض، وهنا انفجر توفيق ضاحكا ومعلقا :

ـ إذا كان يستهويهن حقا البحث عن الأجناس التي في طريقها إلى الإنقراض. فلن يكون حظي معهن سيئا حتى لو كان شكلي عربيا. . . !

وعندما احس «بييترو» بأن توفيق لا يزال ينوي التمشي على الجسر ولا يفضل الجلوس قال وهو يربت على كتف توفيق :

ـ الجو ساحر في هذه الساعة على الجسر والوجوه الحسان تملأ جنباته، انصحك بالتمشي قليلا.

ثم انسحب «بييترو» ضاحكاً بطريقة لبقة يصعب على غيره اجادتها اذا وجد نفسه في موقف كهذا.

أخذ توفيق يسير ببطء مجيلا نظراته بين الجالسين. كل الوجوه المعروفة على الجسر كانت حاضرة في هذا الوقت ففي الجهة الجنوبية من الجسر يجلس «كازانوفا» واضعا يده على كتف فتاة شقراء ليست من بين اللائي رآهن الليلة الماضية بينما أخذت يده اليمنى تقوم

بواجبها المعروف تعلو وتهبط وتنفرج أصابعها أحيانا ثم تلتئم بالقرب من وجه الفتاة وذلك لشرح وتبسيط الكلمات الايطالية التي يصعب على الفتاة فهمها. وفي الجهة الشمالية تربع «خويليوس» عازف القيثارة الارجنتيني الذي لا يفضل توفيق و«بييترو» سماع غيره بعد منتصف الليل على الجسر القديم.

«خويليوس» لا يحلو له الغناء والعزف إلا بعد منتصف الليل على الجسر القديم. حيث يقل عدد الجالسين ويخيم السكون فتحمل النسمات القادمة من الجنوب أو الشمال صوته الاجش المعبر مترنما بأغان شعبية يتردد في كثير منها اسم «تشي جيفارة» ويبدأها دائما بأغنية «وانتانامیرا» ولكنه على غير عادته المعروفة كان «خويليوس» مبكرا في مجيئة إلى الجسر هذا اليوم.

اقترب توفيق من حافة الجسر الشمالية واختار مكانا خلف تمثال النهضة مديرا ظهره للجميع ناظرا إلى انعكاسات الأصيل على سطح نهر «ارنو» حيث اخذت الشمس تختفي رويدا خلف قبة كنيسة «سانت سبيرتو» بينما تعامد شعاعها الذهبي فوق جسر الأبدية. كانت مجموعة «بييترو» قد حضرت بكاملها وعلا صوت «قيثارة» «استيف» وقهقهات «بييترو» والتفت توفيق بعد لحظة استغراق طويلة في لوحة الأصيل الفلورانسي فلفت نظره وجود دراجة مسندة على الحاجز الحديدي المحيط بتمثال «النهضة» وخيل إليه انها تشبه تماما الدراجة نفسها التي انطلقت بها المرأة أمام المقهى منذ ساعة تقريباً، ودفعه حب الاستطلاع إلى البحث عن صاحب الدراجة فتظاهر بتفحص التمثال كمن يراه لأول مرة ورغم ادراكه التام بأنه لن يصدقه في ذلك «بييترو» ولا غيره من مخضرمي الجسر القديم إلا أنه استمر في دورانه حول التمثال بينما كانت نظراته

تتفحص الواقفين على حافة الجسر متراصين بشكلٍ يصعب معه تميز شخص بالذات ما لم يكن الباحث عنه يعرفه جيداً.

لم تكن واقفة في مواجهته ومع هذا فقد تعرف على جديلة شعرها الشقراء المنثنية فوق كتفيها والتي تميزها عن كل الفتيات الواقفات بجانبها.

توقف توفيق بجانب التمثال منتظرا خلو المكان بجانبها وتمنى أن يكون الواقفون بجانبها هم من السواح المارين مرورا عابرا بالجسر فلا يطيلون الوقوف على حافته بل يتركون أماكنهم لغيرهم من المنتظرين خلفهم ليلقوا بدورهم نظرة على لوحة الغروب منعكسة فوق سطح نهر «ارنو» المنساب تحت الجسر القديم، وطال انتظار توفيق حتى التفت «بييترو» الجالس مع مجموعته على قارعة ممر الجسر وسأله :

ـ أراك تبحث عن أحد.

فهز توفيق رأسه بالإيجاب دون أن يدخل في حديث معه.

وفي هذه اللحظة لمح مكانا شاغرا على يسار المرأة مباشرة وخيل إليه أن معجزة قد حدثت تكريما لصبره وطول انتظاره، لم يعد لديه أي شيء آخر يفكر فيه سوى أن يصل قبل غيره فالمكان مغر مطل على النهر وتقف بالقرب منه امرأة جميلة تلفت نظر كل الموجودين على الجسر وتساءل في قرارة نفسه وهو يحشر نفسه حشرا في المكان : لماذا لم يتجاذب معها الحديث أحد من الرجال الواقفين بجانبها طوال كل هذا الوقت ؟ فهذا ليس من عادة رواد الجسر.

لم تشعر هي بوجوده فقد كانت تستند بمرفقيها على حافة الجسر منهمكة في تعديل المسافات لآلة التصوير ذات الحجم الكبير والتي بدت له من النظرة الأولى آلة لا تخلو من خصوصية وانتهز فرصة انشغالها عنه ليمعن فيها النظر أكثر. ثم اخرج آلة تصويره

ليلتقط بعض الصور لمشهد الغروب على الجسر القديم ولربما وجد في هذا وسيلة ناجحة لمشاركة المرأة في اهتمامها مما قد يسهل فتح الحوار معها ؛ وبعد ان التقط ثلاث صور وتأكد من انها قد شعرت بوجوده بجانبها بل التفتت إليه ورأته، التفت هو نحوها قائلا بلغة إيطالية :

ـ للأسف لم يعد بامكاني التقاط أية صورة أخرى، فقد اختفى الشعاع من على سطح النهر.

فأوقفت المرأة آلتها والتفتت لتنظر إلى آلته ثم رفعت وجهها إلى أعلى فالتقت عيناها بعينيه فكست وجهها ابتسامة عريضة اشرقت لها عينيها بينما ظلت حدقتاها مغمورتين بمسحة حزن لم تتأثر بتلك الاشراقة ولم تصل إليها الابتسامة. وبدا له هذا التضاد بين روح المرح الظاهر على تقاطيع وجهها البرونزي ومسحة الحزن القابعة في زاويتي مقلتيها الخضراوين قد اضاف لشخصيتها بعدا آخر يميزها عن ان تكون مجرد امرأة جميلة فقط.

وبادرته هي بلغة إيطالية متوسطة المستوى مصحوبة بلكنة «انجلوسكسونية» واضحة ودون أن تفارق شفتيها الابتسامة السابقة :

ـ ولكن هذه آلة قديمة تجاوزتها كل مراحل التقنية، فماذا تتوقع منها.

أحسَّ بأنها لا تقصد من سخريتها سوى دفعه للحديث.

قال متمهلا في رده محاولا اخفاء رغبته العارمة في الحديث معها :

ـ أنا أيضا مثلها تماما انتمي إلى عالم تجاوزه التطور.

قالت وهي تعيد آلة تصويرها إلى حقيبتها وتستدير نحوه نصف استدارة حتى صارت مواجهته ثم أخذت تتفحصه بطريقة هزلية :

ـ ولكنني لا أرى فيك ما يجعلك مختلفا عن عالمنا.

قال بلهجة لا تقل سخرية عن لهجتها :
ـ لو كان بشر عالمك قد تجاوزني حتى في الخصائص الفيزيائية . . . لما كنت واقفا معك هنا، ولربما كنت الآن أمرح سعيدا في الغابة .
فقالت بتساؤل لا يخلو ظاهره من جدية :
ـ هل حقا هناك سعادة في الغابة ؟
قال وهو يستند بكتفيه على الجسر :
ـ أكثر من التي توجد خارجها على الأقل .
رفعت حقيبتها من على الأرض لتضعها فوق كتفها وهي تقول له :
ـ إذن إسمح لي أن أتركك .
فقال وهو يكاد يمسك بيدها وبلهجة لا تخلو من خيبة أمل :
ـ ولكن إلى أين ؟
قالت وهي تتراجع إلى مكانها السابق :
ـ إلى الغابة طبعا .
قال ضاحكا وهو يمسك بمعصمها في حركة جعلها لا إرادية وخالية من التكلف :
ـ انتظري ! الأمر ليس بمثل هذه البساطة فلا تعتقدي أنه لمجرد دخولك إلى الغابة ستصبحين سعيدة .
اقتربت منه أكثر وهي تتساءل بلهجة لا تخلو من سذاجة مصطنعة :
ـ ولكنك لم تذكر لي أي شرط آخر للسعادة سوى التواجد في الغابة .
ـ ولكن هناك شرط ضمني بلغت بداهته حداً انني لم أجد حاجة للتذكير به .

قالت وهي تستند بأحد مرفقيها على حافة الجسر :
ـ ولكن ما قد يبدو لك بديهيا ليس بالضرورة أن يبدو للآخرين كذلك. ولاسيما أنك تنتمي ـ كما قلت ـ لعالم آخر ليس له علاقة بعالمي أنا وبديهياته.
ـ لازالت تجمع بيننا معطيات المنطق الارسطي الأولية.
قالت مازحة :
ـ لقد طمأنتني، إذن التفاهم بيننا ممكن.
ـ لا أظنك إلا تسخرين مني.
ـ وأنت أيضا.
ـ لم أكن البادىء على الأقل.
ـ هذا ليس صحيحاً ؟
قال متصنعا الغضب :
ـ لعلني أفتري.
وفاجأته ضاحكة :
ـ هذا ليس مستبعدا.
ووجد نفسه في حيرة امام تلقائية ردود اقوال هذه المرأة وبساطتها العدوانية، وقبل أن يرد بشيء وجدها تسأله بلهجة لا تدل على أنها متأسفة لما قالته قبل قليل :
ـ من أي أرض قادم أنت ؟
ـ من أرض لا يميل أهلها كثيراً إلى قول الحقيقة.
إنفجرت ضاحكة وهي تضع يدها على كتفه وتهزه دون تكلف :ـ
ـ هذا أيضا ليس مستحيلا.
سرت إليه عدوى عدم التكلف هذه فاختلطت بغريزة الدفاع عن النفس أمام هذه المرأة التي لم تلزم حدا في تهجمها

واستفزازها له فقال :

ـ بما أنه ليس هناك شيئا مستحيلا استحالة مطلقة لديك فما هي نسبة المستحيل في إمكانية نومنا معا هذه الليلة في سرير واحد .

لم يبـد على المرأة أي إمارة إحراج ولم تتلعثم وهي ترد عليه مواصلة الضحك ومشيرة بإبهامها نحو صدرها :

ـ هذا يتناسب طرديا مع رغبتي أنا !

فهز رأسه دون أن يعلق بشيء .

قالت وهي تتفحص وجهه عن قرب :

ـ يبدو أنك غضبت .

هز كتفيه :

ـ ليس هناك من سبب .

ـ حقـا ؟

ـ طبعـــا .

ـ إذن قل لي من أي بلد أنت ؟

ـ سأتركك تخمنين .

قالت وهي لا تخفي ارتياحها لعودة حديثهما إلى مجراه العادي :

ـ حسنا ! سأقول أنك من أمريكا اللاتينية .

ـ لقد خانتك الفراسة مثلما خانت كثيرين غيرك .

قالت وهي ترفع يدها بالقرب من فمه مستدركة كمن يريد أن يوقف شخصا عن الاستمرار في الحديث :

ـ إنتظر ! دعني أحاول مرة أخرى .

فقال وهو يضع يده على كتفها وأحس لحظتها أنها فعلا أطول قامة منه :

ـ أعرف أنك في هذه المرة ستوفقين .

ظلت تحملق فيه صامتة ثم عضت على شفتها السفلى في شبه حيرة وتساءل :

ـ ماذا حدث ؟ هيا أعرف أنك قد توصلت إلى الاجابة .

قالت بلهجة مشوبة باعتذار :

ـ في الحقيقة إجابتي ليست تامة ، أستطيع أن أقول أنك عربي ولكنها إجابة عائمة .

قال وهو يلمس معصمها لأول مرة :

ـ ولكنها إجابة تامة .

قالت وهي تهز كتفها بعدم رضا :

ـ لا ! إنها ليست تامة ، لأنني لا أستطيع أن أحدد بلدك .

ـ ولكنه ليس بالامكان تحديدها بأكثر من هذا .

ـ لا . ينبغي أن أتوصل إلى معرفة بلدك .

ـ هذه مجرد تفاصيل عديمة القيمة .

تساءلت بدهشة لم تستطع مداراتها :

ـ ماذا تقول ؟ ولكنه مهم بالنسبة إلي ، أن أعرف من أي بلد أنت ؟

قال ولهجته تميل إلى الشرح أكثر منها إلى شيء آخر :

ـ عندما يذكر الشخص بلده لمحدثه فإن هذا الأخير تتبادر إلى ذهنه فكرة أو صورة تتطابق مع ما يعرفه أو سمعه عن هذا البلد . أليس كذلك ؟

فهزت رأسها موافقة وسبقت كلمات اللغة الأم كلمات اللغة الايطالية فقالت بالانجليزية مؤكدة :

ـ هذا صحيح .

قال على الفور وكأنه كان ينتظر هذا الرد ليبني عليه مقولته :

ـ عندما علمت بأنني عربي ، فإنه لاشك قد تبادرت إلى

ذهنك صورة أو فكرة أو شيء من هذا القبيل، ولو اضفت انا قائلا بعد ذلك انني من البلد الفلاني، فلا أعتقد أن تغييرا جوهريا كان سيطرأ على تلك الصورة أو الفكرة في ذهنك.

ـ إنـك تبـالـغ في الأمـر، فلو قلت لي مثلا انك من مصر لتبـادرت إلى ذهني القـاهرة أو النيل ولو قلت لي انك من العراق لتبادرت إلى ذهني بغداد وألف ليلة وليلة.

ـ ليس كل هذا إلا تفصيلا لما قلته.

قالت بلهجة من فرغ صبره :

ـ قل لي صراحة بأنك لا تريد الافصاح عن جنسيتك.

قال وهو يحاول المحافظة على هدوئه ولين لهجته حتى لا يزداد فراغ صبرها :

ـ سأقول لك شيئا آخر طريفاً وسيضحكك.

ـ لست في حاجة لسبب لكي أضحك، كل الذي أرجوه أن يكون مفيداً.

قال متجاوزا تعليقها اللاذع :

ـ لو طرح عليك أحدهم السؤال الآتي «إنسان مضاف إليه نهر النيل وبغـداد والقـاهـرة وألف ليلة وليلة والصحراء وإن شاء الله . . . فماذا عساه أن يكون هذا الانسان».

وقبل أن تنفجر هي ضاحكة وضع توفيق يده على صدرها مضيفا :

ـ لا أظن أنك ستجيبينه بأن هذا الانسان لا يكون إلا صينيا أو فرنسيا.

وبينما أخذت هي تضحك أخذ يلح عليها قائلا :

ـ بماذا ستجيبين ؟

قالت وهي تتلكأ قليلا لمناكفته :

ـ من المحتمل أن أقول إنه عربي.
ـ وهذا ما قلته لك. وانني لمتأكد بأنك تتعاملين معي على أساس هذه الهوية وليس على أساس هوية جواز السفر التي تصرين على معرفتها.
قالت وهي تمد يدها لحقيبتها:
ـ إذا شئت فلا مانع لدي من إطلاعك على هوية جواز سفري.
فقال وهو يزيح يدها من على حقيبتها:
ـ أعرف أنك أمريكية وجواز سفرك لن يضيف شيئا.
وهنا أخذت بكلتا يديه كمن ينوي الشجار معه ثم دفعته بلطف إلى الخلف وهي تقول باسمة:
ـ ما هذه المصيبة التي وقعت فيها هذا المساء؟
قال ضاحكاً وهو لا يبدي أية مقاومة:
ـ أما أنا فلست واثقاً من منا قد وقع حقيقة في مصيبة.
قالت وهي لا تستطيع منع نفسها من القهقهة بصوت عال:
ـ كفى ألا تستطيع أن تجد موضوعا آخر للحديث قد تبدو فيه أكثر تأدبا؟
وقبل أن يرد عليها بشيء، خطت هي عدة خطوات نحو التمثال لتتطلع إلى دراجتها المسندة على حافة سياج التمثال. ثم عادت إلى مكانها. فتصنع هو الجهل متسائلا:
ـ لماذا تتطلعين إلى هذه الدراجة؟
ـ إنها دراجتي.
ـ هل تسافرين على دراجة؟
ـ لا. لقد استأجرتها في «فلورانس».
ـ يبدو أنك مقيمة هنا منذ مدة طويلة؟

قالت وهي تعود إلى مناكفته :
- ليست بأطول من مدة إقامتك ! على ما يبدو ؟
- لقد مضى علي شهران .
- فقط ؟
- كم من الوقت كنت تتصورين قد مضى علي هنا ؟
- لا أعرف ! ربما سنوات .
- وما دعاك إلى مثل هذا التصور ؟
قالت ولهجتها هذه المرة تتغير حتى خيل إليه بأنها ليست هي نفس المرأة التي كانت تشاكسه قبل قليل :
- لأنني ألمح في عينيك آثار غربة طويلة .
قال وهو يهرب من الرد على ملاحظتها الحساسة هذه :
- لقد مضت علي خمس عشرة سنة لم امتط فيها دراجة ، ولا أظن الا مثل هذه الفرصة لن تسنح لي مرة أخرى قبل مرور خمس عشرة سنة جديدة . وأحست هي - على ما يبدو - بمحاولة الهروب هذه من جانبه ولم تشأ أن تقفل أمامه الباب المفتوح الوحيد ، فقالت وهي تفتح حقيبتها وتخرج منها مفتاح الدراجة لتناوله إياه :
- ماذا تنتظر إذن ؟
وانـطلق بالـدراجة إلى منتصف الجسر ثم ترجل عنها وعاد يقودها إلى جانبه والتقت هي به في منتصف الطريق متسائلة :
- ماذا جرى ؟
قال وهو يضع الدراجة في مكانها السابق :
- لقد ساورني شعور غريب مضحك .
قالت متسائلة وهي تتناول منه مفتاح الدراجة :
- بماذا أحسست ؟

ـ لقد أحسست بأنني تجاوزت السن التي يمكنني فيها ركوب الدراجة.

قالت وهي تضع يدها على كتفه :

ـ ماذا تقول ؟ لا أظنك إنسانا طبيعيا !

ـ لديكِ حق في أن تستغربي هكذا، ولكنني استخدمت الدراجة خلال سنوات المراهقة فقط ثم تركتها بعد ذلك، فصارت الدراجة مرتبطة في ذهني بفترة المراهقة فقط.

عادت هي إلى لهجة السخرية مرة أخرى :

ـ ولكنك لا تزال كذلك ؟

ـ من حين إلى آخر ألتقي بآمرأة تعيدني إلى تلك المرحلة.

ـ أتمنى أن تقع على مثل هذه المرأة اليوم، حتى تعود إلى ركوب هذه الدراجة.

ـ إنني أعرف مكانا آخر أكثر هدوء من هذا.

ـ أين يقع ؟

ـ إنه مقهى في ساحة «سانتسيما دانونشياتا».

قالت وهي تمسك بمقود الدراجة :

ـ دعنا نذهب إليه ؛ أليس هذا ما تريد قوله ؟

قال وهو يمسك بالجانب الآخر من مقود الدراجة :

ـ هذا ليس عصي الفهم.

وهبط الاثنان شارع الجسر متجهين إلى وسط المدينة، وعندما مرا بمجموعة «بييترو» رفع هذا الأخير يده محييا توفيق ومردفا ذلك بغمزة من طرف عينه.

ـ إسمي «باتريشيا براون»، قالت وهي ترفع صوتها قليلا ليسمعها وسط ضوضاء وزحام الجسر في هذه الساعة من المساء.

ـ توفيق منصور.

وأخذت هي تردد الاسم الأخير ثم توقفت عن السير متسائلة :

ـ هل هناك علاقة لغوية بين هذا الاسم واسم المنصور.

ونطقت هذا الاسم الأخير على طريقتها اللاتينية «المنسور» فأجاب وهو يحاول أن يتأكد من فهم ما قالته :

ـ تقصدين المنصور ؟

ـ نعم أظن ذلك.

ـ نعم هو نفس الاسم مع فارق واحد وهو أن المنصور معرف.

وهنا طفقت «باتريشيا براون» تضحك غير آبهة بموجات البشر التي تتقاذفها مع دراجتها يمينا وشمالا.

توقف هو عن السير وظل ينظر إليها هنيهة قبل أن يقول لها :

ـ لابد أنك جننت.

انتحت «باتريشيا» بدراجتها في زاوية أقل ازدحاما وهي تقول له :

ـ إسمع ! لهذا الاسم حكاية معي تذكرتها الآن.

ـ وهل هي مضحكة إلى هذا الحد ؟

ـ بالنسبة إلي فقط. لقد كنت في الأندلس وفي «اشبيليا» كان الدليل السياحي الاسباني لا يحدثنا طوال اليوم إلا عن صاحب هذا الاسم. هذا جامع المنصور، هذه بناها المنصور وتلك فعلها المنصور، وبعد ذلك التقيت بعرب كثيرين لم يكن أي منهم يحمل هذا الاسم فخيل إلي أنه اسم منقرض. وعندما سمعته منك الآن تذكرت أنه قبل قليل كنت تقول لي إنك تنتمي إلى عالم تجاوزه الزمن.

لم يعلق توفيق بشيء وعـاد إلى استئنـاف سيرهما عبر شارع «ڤيابورسانتاماريا» وعندما انعطفا نحو ساحة «بياتزادي لاسينيوريا» قالت له متسائلة :

ـ ولكن لم تقل لي ماذا جئت تفعل في «فلورانس» ؟

ـ وأنت ؟

ـ سائحة !

ـ كذلك أنا.

ـ ولكنك لم تخبرني عن عملك ؟

ـ وأنت أيضا لم تفعلي ذلك ؟

ـ آخر عمل لازلت أمارسه اخصائية نفسانية.

ـ أنا مجنون يبحث عن أخصائي نفساني.

انفجرت «باتريشيا» ضاحكة :

ـ بل عن مجنون آخر.

ثم توقفت عن الضحك والسير معا قائلة بلهجة لا تخلو من جدية :

ـ إسمع. إما أن تجيب عن أسئلتي وإلا نفترق من الآن.

ـ ولكن أسئلتك تأتي دائما بشكل استجوابي مباشر.

قالت وهي تهز رأسها باسمة :

ـ لا تحاول الهـروب. إنني لا أفضل الرجال الغامضين ولا تستهويني الألغاز.

قال وهـو يمسـك بمقود الدراجة من جانبه ويدفع بها إلى الأمام ليستأنفا السير :

ـ أعمل مصورا صحفيا لمجلة عربية تصدر في بلد أوروبي.
وإذا أردت الاطلاع على بطاقتي فلا مانع لدي.

قالت وهي تهز كتفها وتدفع بالدراجة من جانبها :

ـ لا . لم أطلب منك ذلك، المهم أن تعطي إجابة واضحة بصرف النظر عن صحتها.
ـ ألا تصدقين ما أقول ؟
قالت وهي تغالب ضحكتها :
ـ لم يسبق لي أن أتعبت نفسي في التأكد من مدى صحة ما يقوله لي رجل ألتقي به لأول مرة.
وظل توفيق واقفا ينظر إليها دون أن يعلق بشيء فدفعته هي من كتفه بلطف.
ـ أعرف أن كلامي يضايقك ولكنه لا يجعلك عاجزا عن السير.
تحركت قدماه إلى الأمام وهو يهز رأسه ضاحكا ثم قال :
ـ هل أنت واثقة من أنك طبيعية ؟
فردت على الفور :
ـ إن لم أكن كذلك تكون قد وقعت على ضالتك.
عندما وصل الاثنان إلى مقهى ساحة «سانتيسيمادانتوشياته» كان المقهى لم يغص برواده بعد في هذه الساعة المبكرة من المساء. اختارا إحدى الطاولات المتناثرة خارج المقهى والتي يحيط بها سياج من الأشجار الصغيرة المزروعة في أُصُصٍ فتبدو على شكل حديقة صغيرة أمام المقهى.
واقترب منهما «الدو» عامل المقهى الشاب الضخم الجثة الضحوك الثرثار فهش عندما رأى توفيق ملقيا عليه تحية المساء. فوجيء توفيق في هذه اللحظة «بباتريشيا» تساءل «ألدو» :
ـ ألديكم نبيذ كاليفورنيا الأحمر ؟
ـ نعم. لدينا رغم أن زبائنه ليسوا كثرا.
ـ زجاجة كبيرة من فضلك.

وحينما رمقها توفيق بنظرة تساؤل ردت عليه :

ـ لنا نحن الاثنين بالطبع .

استدار «الدو» بعد أن غمز توفيق بطرف عينه ليفهمه بأن صيده سمين هذه الليلة .

وما أن ابتعد «الدو» حتى قالت «باتريشيا» بابتسامة :

ـ أعذرني . لقد أخطأت بطلبي للنبيذ . حقا إنك مسلم .

ـ ومن أدراك ؟

قالت وهي تنفجر ضاحكة بصوتها العالي غير المتكلف :

ـ لا أحد . ولكن هذا فقط استكمالا للتصور الذي تحدثت انت عنه عندما كنا على الجسر القديم .

صمت توفيق وأخذ يتطلع في الوجوه القليلة الجالسة حولهما ولم يعد إلى وضعه السابق إلا حينما سمع صوت الزجاجة و«الدو» يضعها على الطاولة . أخذت «باتريشيا» تسكب محتوى الزجاجة في كأسيهما ؛ ولفت نظر توفيق ان «باتريشيا» كانت تنظر إليه هو وليس إلى الزجاجة ومع ذلك فلم تسقط قطرة واحدة خارج الكأسين . ورغم ان «باتريشيا» لاحظت تلك الدهشة في عيني توفيق إلا أنها على عكس ما يبدو من طفوليتها فلم تعر دهشته إهتماماً، وظل كلاهما يحتسي كأسه وخيم عليهما فجأة الصمت ولم يشأ أي منهما ان يقطعه وظل يطول حتى لم يعد أي منهما يعرف ما سببه ولا كيف بدأ . فجأة مدت «باتريشيا» يدها دون تكلف إلى فتحة قميص توفيق لتمسك بالسلسلة المتدلية في رقبته وتفحصها قليلا ثم نطقت الكلمة المكتوبة على القطعة المعدنية المستديرة :

ـ اللـــه .

وانتفض توفيق بحركة لا إرادية :

ـ أتفهمين العربية ؟

ـ لا إنني لا أفهم حرفاً واحداً منها.
ـ إذن كيف استطعت قراءة هذه الكلمة ؟
قالت وهي تهز رأسها بالنفي :
ـ إنني لم أقرأها، ولكنني تعرفت عليها فقط مثلما أتعرف على وجه التقيت به في السابق، ولكثرة ما التقيت بهذه الكلمة مكتوبة في المساجد والأماكن العامة أصبحت قادرة على التعرف عليها مهما تغيرت الطريقة المكتوبة بها.
ـ يبدو أنك تجولت كثيرا في تلك البلدان ؟
ـ لقد مضى علي عامان خارج الولايات المتحدة الأمريكية.
قال توفيق بعفوية :
ـ عامان فقط ؟
ـ أعرف أنها مدة قصيرة قياسا بتلك التي قضيتها انت حتى الآن خارج بلدك.
صمت توفيق ولم يعلق بشيء.
وتحت ضوء المصباح الذي يغمر ثلاثة ارباع وجه «باتريشيا» بينما ظل ما تبقى من وجنتيها خارج الضوء محتفظا بلونه النحاسي تحت ظل جديلتهـا الشقراء أخذ توفيق يستملي وجهها بينما بدت «باتريشيا» مندهشة تحملق في توفيق وتقترب منه متسائلة :
ـ ماذا جرى ؟ اعرف انك مصور ولكن لا تبالغ إلى هذا الحد.
فاجأها توفيق :
ـ لقد سبق لي أن رأيت صورتك على غلاف مجلة.
قالت «باتريشيا» باسمة :
ـ لا نزال لم نكمل الزجاجة الأولى بعد، فهل طار صوابك من الآن ؟

التفت توفيق إلى «الدو» قائلا :
ـ زجاجة أخرى من نفس النوع .
ثم استدار نحو «باتريشيا» قائلا :
ـ بالتأكيد لقد رأيتها في الصيف الماضي .
قالت «باتريشيا» محاولة مجاراته فيما تعتقده مزاحا من جانبه :
ـ من الممكن أن تكون المجلة قد نشرت صورتي كأسوأ امرأة في العالم .
قال توفيق بلهجة بين المزاح والجد :
ـ قد لا يكـون هذا مستبعـدا ، ولكن على أية حال فإن صورتك لم تكن منشورة لهذا السبب .
وهنـا مدت «بـاتـريشيا» ذراعيهـا نحو توفيق لتحيط رقبته بقبضتي يديهـا ثم أخذت تضغط بلطف على عنقه قائلة وابتسامة عريضة ملء شفتيهما :
ـ لقد تجاوزت حدك هذه المرة .
لم يرد توفيق بشيء بل ترك عنقه ـ الذي لوحته الشمس فصار قرمزيا ـ لمداعبة أنامل «باتريشيا» البظة غير أن هذه سحبت يدها عندما أحست أنه يستلذ بذلك ثم قالت :
أرجـو أن تكـون مسـألـة الصورة هذه ليست إلا من قبيل المزاح ، وإلا سأعتبر نفسي فعلا أنني هذه الليلة بصحبة رجل قواه العقلية ليست كلها على ما يرام .
قال توفيق وهو يفتح الزجاجة الثانية :
ـ لك أن تعتـبري نفسـك ما تشـائـين . أما أنا فقد رأيت صورتـك بالفعـل على غلاف مجلة «أوبـزيرفـاتـور» في عدد شهر أغسطس من السنة الماضية .
ـ لابد أنها تشبهني فقط ؟

ـ ولكنها أمريكية أيضا .
ـ ولأي سبب نشروا صورة هذه المرأة ؟
ـ نشروا صورتها على الغلاف وهي بملابس الميدان وبكامل عتادها بما في ذلك الرشاش . بينما كانت تشارك في مناورات النجم الساطع الأمريكية في صحراء مصر الغربية .

وانفجرت «باتريشيا» ضاحكة بصوت عال لفت انتباه الكثيرين في المقهى حتى ظن البعض منهم أن هذه الأمريكية قد طار برأسها نبيذ «كاليفورنيا» وغدت فريسة سهلة لهذا الصعلوك الطويل الشعر. ولربما ظن بعضهم الآخر إنهم لاشك قادمون على مشهد سيسرهم كثيرا . واستعادت «باتريشيا» السيطرة على نفسها :

ـ حقا إنها فكرة لابأس بها، سأفكر فيها حين عودتي إلى الولايات المتحدة في السنة القادمة .

إقترب «الدو» كعادته كل ليلة ليثرثر قليلا مع توفيق عن أحداث اليوم الذي مضى ولكنه استدار نحو «باتريشيا» وتلك أيضا عادته دائما مع النساء ليسألها عن أصلها وبلدها وسبب زيارتها لايطاليا وسر اختيارها «لفلورانس» وقاطعته «باتريشيا» متسائلة وهي تشير بإصبعها نحو توفيق :

ـ هل تعرف هذا الرجل ؟
التفت «الدو» باسما نحو توفيق قائلا :
ـ هذا . بالطبع أعرفه .
وقاطعته «باتريشيا» بسؤالها الثاني :
ـ من أي بلد هو إذن ؟
فقال «الدو» وهو يعود بنظراته إلى «باتريشيا» :
ـ ألا تعرفين بلده ؟
ـ رفض أن يخبرني باسم بلده .

قال «الدو» باسما :
ـ هذه عادته دائما.
ـ إذن أنت أيضا لا تعرفها.
هز «الدو» كتفه قائلا :
ـ أعرفها بالطبع.
وقبل أن تحاصره «باتريشيا» بسؤال آخر استدار «الدو» نحو توفيق وأخذ يربت على كتفه قائلا :
ـ على أية حال إنه رفيق يعجبك.
وحينما غادرهما «الدو» تساءل توفيق :
ـ حقا ألا تزالين تجهلين بلدي.
قالت «باتريشيا» :
ـ إنني أعرف وطنك فقط. وليس بلدك.
لا فرق عندي بين الاثنين، فبلدي ليس فقط تلك الأرض التي تقع تحت سلطة الادارة التي منحتني جواز سفري، ولكن بقية الأرض العربية الأخرى التي تمنعني ادارتها من الدخول إليها ويستقبلني على حدودها مخبروها وكلابها البوليسية.
ـ يبدو أنك غير راض على ما تسمية وطنك.
ـ هذا ليس سرا اخفيه على أحد.
تساءلت «باتريشيا» بلهجة يصعب فيها معرفة ما إذا كانت تجهل فعلا أو انها تريد معرفة رأي توفيق :
ـ لماذا ؟
رد توفيق بعد أن افرغ كأس النبيذ في جوفه دفعة واحدة :
ـ لأن كل شيء سيء.
ـ صحيح. وما بال الناس لا يثورون ؟
ـ ليس هناك اناس بالمعنى الذي تقصدين.

قالت «باتريشيا» بفضول مصحوب بدهشة :

ـ وماذا هناك إذن ؟

أخذ توفيق ينظر إلى كأسه الفارغ ويقلبه بين يديه وكأنه يستقرىء فيه شيئا ثم أومى برأسه إلى «الدو» ليحضر زجاجة أخرى بينما استحثته «باتريشيا» مرة أخرى وكأنها تخشى أن ينسى الاجابة عن سؤالها :

ـ ماذا يكونون اذن ؟

ـ كائنات من الذكور والاناث.

وأخذت «باتريشيا» تضحك حتى قطع عليها ضحكهامجيء «الدو» حاملا الزجاجة الثالثة ليضعها على الطاولة قائلا :

ـ ألم أقل لك انك لن تشعرين بالملل معه.

قالت «باتريشيا» التي فضلت أن لا ترد على «الدو» حتى لا يفقد سؤالها لتوفيق حرارته :

ـ وماذا تسمي هذه الكائنات ؟

قال توفيق وهو ينظر إلى كأسه الملآن بارتياح :

ـ إنني لا أستطيع أن أجد لهم تسمية. ولكنهم على أية حال ينقصهم ـ حسب رأيي ـ شيئا ما لكي يصيروا أناسا.

قالت «باتريشيا» :

ـ لقد كنت مدافعا متحمسا عن القومية العربية حينما كنا على الجسر. فماذا جرى لك الآن ؟

فقال توفيق على الفور :

ـ ألا يوجد موضوع آخر يصلح للحديث غير هذا.

لم تعلق «باتريشيا» بشيء. وظل توفيق صامتا يتلهى بمداعبة كأسه بين يديه وأحس توفيق بأن «باتريشيا» تسلط نظراتها عليه بعمق فترك نفسه ينتشي بلذة هذا الشعور الذي يعرف بأنه قد لا

يتعدى في حقيقة الأمر دائرة التصور المبالغ فيه ؛ وعندما رفع رأسه لم يكن قد مل استمرارية هذا الاحساس ولكنه خشي ان يكون قد وقـع ضحية حلم اليقظة. كانت «باتريشيا» تستند بمرفقيها على الطاولة تاركة وجهها يستريح بين راحتي كفيها.

التقت عيناه بعينيها في استغراق تام بحيث لم يعد أي منهما يرى سوى قاع عيني الآخـر. وأحس توفيق بأنه يقف على حافتي بحيرتين في يوم ربيعي سماؤه صافية تنعكس شمسه فوق صفحتيهما الرائقتين ولم يعد يدري أي منهما كان يقترب بوجهه من الآخر. وفي اللحظة التي أحس بها أن أنف كل منهما لامس الآخر وجد خنصر يد «بـاتريشيا» يتدخل فجأة كعازل بين شفتيها الشهيتين وشفتيه اللاهثتين. فقال بصوت خافت :

ـ أعرف أن هذه عادة أمريكية ثابتة.

فابتسمت «باتريشيا» وهي تقول :

ـ عندما تتطلب المصلحة عدم ترك الطرفين مشتبكين.

قال توفيق وعيناه تنغرسان في عينيها :

ـ إنني أتساءل الآن لمصلحة أي الطرفين تم هذا التدخل.

قالت «باتريشيا» وهي تضغط بأنفها على أنفه :

ـ حتى هذه المرة ليس لمصلحة الطرف العربي ! .

وفـوجيء الكثـيرون من الفضوليين في المقهى والذين كانوا يتـابعـون المشهـد بشغف بضحكتـين مدويتـين وانفصـال وجـه «باتريشيا» عن وجه توفيق، فخابت توقعات كل هؤلاء الذين ظنوا للحظة أنهم يعيشون الثواني الأخيرة لنهاية هذه اللعبة الثنائية التي بدأت تحت رعاية نظراتهم الفضولية منذ بواكير هذا المساء. ولم يلبث وجهاهما ان عادا يقتربان من بعضهما وبقايا ضحكة طويلة لازالت تتمطى فوق شفتيهما. كانت عينا «باتريشيا» تترقرقان دمعا من شدة

الضحك. وأحس توفيق أن ذلك اليوم الربيعي الرائع الذي تخيله قبل حين قد تعكر جوه، فجأة وانفجرت في سمائه عاصفة هوجاء خطيرة فارتفع منسوب المياه في البحيرتين فظهرت على حافتيهما بوادر فيضان ستغمر مياهه بعد قليل حقول البنفسج العابقة بأريجها والممتدة عبر هذا السهل الصغير المنحدر من مرتفعي وجنتي «باتريشيا» النضرتين حتى زاويتي فمها الباسم الصغير.

وراوده فجأة الإحساس بضرورة تنبيه «باتريشيا» عن قدوم هذا الفيضان غير أن شفتيه احتضنتا في هذه اللحظة شفة «باتريشيا» السفلى فصعقه تيار اللذة واجتاح كيانه صعودا وهبوطا وتعطل في حلقه قطار كلمات.

الفصل الرابع

كانت النافذة مفتوحة، وشعاع شمس ما قبل منتصف النهار يتسلل داخل الحجرة، عندما أخذ توفيق يستيقظ ببطء مديراً رأسه في ما حوله، فشاهد عن يساره رجلين تمتدان على الفراش وقد انحسر عنهما الغطاء وغرقتا في هالة من شعاع الشمس. وقبل أن يتبادر إلى ذهنه أي تساؤل رفعت «باتريشيا» ذراعها الذي كانت تغطي به وجهها واستدارت نحوه باسمة وهي تقول :

ـ لم أكن اتصور انك ثقيل الحمل إلى هذه الدرجة.

استدار توفيق نحوها بشكل مفاجيء وعلى وجهه علامات الدهشة المصحوبة بغضب :

ـ أنت هنا ؟

انفجرت «باتريشيا» ضاحكة وهي تهز كتفها العارية :

ـ لو لم أكن هنا ما كنت أنت لتكون هنا.

ـ كيف عرفت الطريق ؟

ـ ألم تقل لي العنوان عندما نهضنا من القهوة أسندك على كتفي.

ـ وكيف وصلنا إلى هنا ؟

قالت «باتريشيا» وهي تضع يديها خلف ظهرها بحركة إرادية :

ـ وصلنا هنا وأنا أحملك هكذا.

وأحنت «باتريشيا» ظهرها إلى الأمام وأردفت قائلة :

ـ وكنت أمشي هكذا . .

ثم انفجـرت ضاحكـة وهي تدفعه بحركة ملاطفة واضعة يدها في صدره .

ـ أشكرك على أية حال .

قالت «باتريشيا» وهي تهز كتفيها :

ـ لقد كان هذا واجب رفقة ومنادمة وإن لم تكن تأديتي له محل غبطة وسرور لدي .

قال توفيق باسماً :

ـ أعتقد أنه لن نفترق قبل أن يصاب أحدنا بالجنون .

ـ بما أنني مجنونة أصلا . فليس هناك من مرشح للجنون غيرك .

قال توفيق وهو يحيط رقبتها بيديه ويجذبها نحوه :

ـ سأكتم أنفاسك . إن لم تكفي عن سلاطة اللسان هذه .

وألقت «باتريشيا» بنفسها عليه فجأة وهي تقول ضاحكة :

ـ سنعرف من منا سيكتم أنفاس الآخر .

الفصــل الخامس

ربما كان كلاهما في حاجة إلى تلك الجلسة الثنائية منذ فترة طويلة، فلم يكن أي منهما حراً من التزاماته على الجسر القديم بقدر ما كان عليه هذا المساء.

بالنسبـة لتوفيق لم تكن «باتريشيا» حاضرة فقد سافرت إلى مدينـة «سيّنـا» القريبة منذ الصباح؛ كذلك وجد «بييترو» نفسه وحيدا بعد أن تفرقت آخر شلة وسافر آخر أفرادها بعد ظهر ذلك اليوم.

قال «بييترو» ويده ترتعش لهفاً على السيجارة التي بين أصبعيه :

ـ إنني حزين وسعيد في آن واحد لكونك لا تشاركني هذه السيجارة.

تساءل توفيق وهو يخرج سيجارة من علبته :

ـ إنني أفهم أن تكون حزينا فقط أو سعيد فقط أما الإثنان معا فهذا أمر آخر لا أفهمه.

فرد «بييترو» وهو يهز رأسه تأكيدا لما يقول :

ـ نعم. الإثنـان معا. حزين لأنك لم تشاركني ما فيها من لذة. وسعيد لأنك تتركها لي وحدي.

قال توفيق مناكفاً «بييترو» :

ـ هذا السلوك لا يليق بعضو سابق في منظمة «التوباماروس»

قال «بييترو» وهو ينفجر ضاحكاً :
ـ على أية حال لم تكن منظمة مقدسة .
ـ أعرف هذا ولكن لم يكن ممكنا لكم أن تنفذوا مهمات قتالية وأنتم منتشون بمخدر «الماريوانة»
قال «بييترو» وهـو يحك خده بأظفار يده اليسرى بينما إبهام وسبابة يده اليمنى يقبضان بشدة على عقب السيجارة :
ـ لم يكن ذلك ممكنا .
ـ لأنه لم يكن وارداً في برنامج المنظمة .
وانفجر «بييترو» ضاحكا مرة أخرى :
ـ لو أنصفت لجعلت ذلك ضمن برنامجها . .
ـ وبأي صفة تطالب بهذا الآن ؟
ـ بصفتي عضو سابق في منظمة لم تعد موجودة .
ـ ومع هذا فإنه لا ينفي عنك مسؤولية ما قلته .
فهز «بييترو» رأسه :
ـ لو كانت «التوباماروس» لا تزال موجودة ، ولو كنت لا أزال عضواً فيها لقلت شيئا آخر غير هذا .
فنظر إليه توفيق بدهشة دون أن يعلق على ذلك بشيء .
فأضاف «بييترو» وهو يلكز توفيق في ركبته :
ـ أعرف أن هذا الرأي لا يعجبك . ولكن ما قولك فيه كفلسفة ؟
فضحك توفيق مجيباً :
ـ لابأس به .
وعاد توفيق بحديثه إلى موضوع «التوباماروس» قائلا :
ـ ومـع هذا . فقـد انتهت «التوباماروس» كمنظمة وظلت جراحك من جراء دفاعك عنها تنزف دما بعد ذلك بوقت طويل .

قال «بييترو» بلهجة لا تخلو من حزن هذه المرة :
- ولولا بغل ذلك الفلاح لظلت تنزف حتى فرغ الدم من عروقي .
- وما دور البغل في ذلك .
لولا البغل لما استطاع ذلك الفلاح البرازيلي - الذي وجدني ملقى بجانب حقله - أن يحملني إلى طبيب قريته الشعبي الذي استطاع بدوره - رغم قلة امكانياته - أن يخرج من كتفي ومن مؤخرة رقبتي رصاصتين. ربما كانت تلك أول مرة يكشف فيها «بييترو» لأحد رفاقه على الجسر القديم سر ارتدائه لقبعة الصوف في عز حرارة أغسطس وذلك لإخفاء التشويه الذي نتج عن الجراحة البدائية لإخراج الرصاصة من مؤخرة رقبته .
تساءل توفيق :
- كيف عبرت حدود الأرغواي حتى وصلت إلى البرازيل ؟
- ألم أقل لك إنه قد حملني سائق سيارة لوري وألقى بي على مقربة من حدود البرازيل، في منطقة جبلية يصعب مراقبة الداخلين منها إلى البرازيل، ولم أقطع مسافة طويلة داخل البرازيل حتى وقعت مغمى علي، ولكن لحسن الحظ كان ذلك بالقرب من حقل ذلك الفلاح صاحب البغل .
- أيهما كان صاحب الفضل عليك أكثر : صاحب اللوري أم صاحب البغل ؟
فرد «بييترو» وهو ينظر إلى الأسفل ساهما :
- كان كلاهما في حاجة إلى الآخر .
لم يعلق توفيق وأشعل «بييترو» سيجارة غير مخدرة ثم قال وهو يعبث بأصبعه على الأرض كمن يحاول رسم شيء :

ـ ولكن جهودهما لم تؤد إلى تحقيق ما كان يدور في خلديهما من نتيجة.

ـ كانا يريدان إنقاذك ؛ وقد تحقق ذلك.

قال «بييترو» مبتسماً :

ـ لقد كان يجري في خلد كل منهما أثناء عملية إنقاذي بأنه يقوم بإنقاذ أحد أعضاء «التوباماروس» وليس «بييترو» الذي سيصبح بعد ذلك أحد صعاليك الجسر القديم. ولكن بالنسبة لهما لم ينقذا إلا عضو منظمة «التوباماروس» في ذلك اليوم.

فهز «بييترو» رأسه :

ـ قد يكون ذلك سلواهما الوحيدة.

ـ وكأني بك نادم عما أصبحت عليه.

أخذ «بييترو» يسحب آخر أنفاس سيجارته بشكل متواصل ويهز كتفيه مطأطئا رأسه ولم يفهم توفيق ما إذا كان «بييترو» يريد بذلك تأكيد التهمة أو نفيها أو أنه لا يريد في حقيقة الأمر لا بثبوتها ولا نفيها.

وطال انتظار توفيق ولم يغير ذلك من صمت «بييترو» فتحولت نظرات توفيق إلى الجسر الذي ما يزال مكتظاً برواده محاولا بذلك اعطاء «بييترو» فرصة ثمينة للهروب نهائياً من معرض الإجابة وكأنه هو أيضا فضل أن لا يسمع لهذا السؤال إجابة قاطعة من عضو «التوباماروس» السابق ؛ أو لربما تخلى توفيق عن سؤاله لأنه بدت له محاولة ارغام «بييترو» بالإجابة عليه هي بمثابة اطلاق نبله على فارس لا يزال يتدحرج ساقطا لتوه من على جواده.

وضع «بييترو» يده على ذقنه وظل على هذا الوضع لحظة كمن يتأمل ثم هز كتفيه مرة أخرى ولم يفتح فمه بشيء.

وسر توفيق إنقطاع الحديث في هذا الموضوع.

قال توفيق :

ـ يبدو أن «مارتا» قد سافرت وتركتك .

رفع «بييترو» رأسه إلى أعلى ليقطع حالة الاستغراق التي كان فيها ثم استدار نحو توفيق .

ـ لم تكن معي حتى تتركني .

قال توفيق محاولا مناكفة «بييترو» :

ـ تقصد أنك لم تكن معها .

قال «بييترو» ضاحكاً وهو يهز رأسه ويحك طرف أذنه بيده :

ـ إذا شئت التحديد .

ولم يتجنب توفيق محاصرة «بييترو» هذه المرة :

ـ ولكن الإختلاف بين المعنيين جوهري وتوضيحه لايعد مجرد مسألة تحديدية داخل الموضوع نفسه .

قال «بييترو» وهو يضع يده على كتف توفيق باسما :

ـ إذا كان هدف إظهارك لمدى شقة الخلاف بين المعنيين هو السخرية مني ؛ فإن اعتبار الفرق بينهما مجرد مسألة تحديدية هو في حد ذاته كاف لوضعي في موضع السخرية .

ـ لا أعتقد أن رجلاً يصبح موضع سخرية لمجرد أن امرأة فضلت آخراً عنه .

قلب «بييترو» شفته السفلى دون أن يقول شيئاً كعادته عندما لا يريد أن يجيب صراحة عن السؤال المطروح عليه .

قال توفيق مخففا عن «بييترو» :

ـ على أية حال : لا أعتقد أن القيمة تدخل ضمن الإعتبارات التي تدعو إمرأة إلى تفضيل رجل عن غيره .

إعتدل «بييترو» في جلسته ومال بجسمه إلى الخلف حتى استقرت كتفاه على حائط الجسر :

ـ رغم أن قيمة الرجل لا تدفع المرأة لاختياره دون من هو أقل منه، إلا أن خيارها هذا له قيمة بالغة في عالم الرجال.

ـ هذا أمر طبيعي. فالرجل لا يتألم ـ أحيانا ـ لأنه فقد امرأة ولكن لأن هناك رجل آخر قد هزمه.

قال «بييترو» وتقاطيع وجهه تحمل شيئاً من الإمتعاظ:

ـ على أية حال، المرأة هي المجال الوحيد الذي يستطيع حتى أقل الرجال قيمة صنع البطولات فيه!

فأخذ توفيق يقهقه وهو يهز ركبة «بييترو»:

ـ لازالت تسيطر عليك روح المحارب العنيد.

ـ حتى عندما كنت محارباً، لم تكن هذه الروح ترتكبني في مجال النساء.

ـ ولكن كل ما له قيمة في نظر الرجال، قد يصبح في لحظة ما موضوع صراع يتحول خلاله الكثيرون إلى محاربين.

ـ قد تستطيع بنضالك أن تصنع ثورة كان نجاحها مستحيلا، ولكنك لا تستطيع بذلك أن تستولي على قلب امرأة تريد رجلا غيرك وإن كان هذا هو أقل الرجال قيمة على الأرض.

ـ ومع هذا فإن هناك رجالا يفنون أعمارهم في النضال من أجل الاستيلاء على قلب امرأة مشغول برجل آخر وليس من أجل ثورة.

قال «بييترو» وهو يرفع رأسه إلى أعلى ليحملق في السماء لأول مرة منذ أن جلسا:

ـ ربما لأن الانسان عموما ينزع بطبعه إلى المستحيل وليس إلى الممكن..

ـ وهل يبدو لك هذا الأمر ساراً؟

قال «بييترو» ساخراً:

ـ أذكر أنني لم أبك عندما اكتشفت هذا الأمر لأول مرة ولكنني لم أجد فيه ما يدعو للفرح.

فعاد توفيق إلى الحديث عن «مارتا» متسائلا :

ـ هل تعتقد أن «مارتا» أحسنت الاختيار عندما اختارت «استيف» بدلا من «بييترو» ؟

أخذ «بييترو» يقهقه وهو يضغط رأسه على حائط الجسر.

ـ ألا تكف عن استدراج عواطفي والسخرية بها أيها الهندي الأحمر.

إنفجر توفيق ضاحكا :

ـ إنني لا أقصد ذلك. وإنما أتساءل، لأنني لو كنت «مارتا» لاخترت قطعا «بييترو» وليس «استيف» !

إجتاح نوع من الراحة نفس مقاتل «التوباماروس» السابق، وان لم يظهر ذلك لتوفيق، وقال وهو يشبك يديه حول ركبتيه القائمتين ويميل بجسمه إلى الأمام :

ـ لم يكن في ما جرى عملية اختيار في حقيقة الأمر.

ـ ولكنها مع من ذهبت في النهاية.

ـ مع «استيف» بالطبع.

فهز توفيق رأسه بطريقة تعني :

ـ إذن. . .

فرد «بييترو» على الفور :

ـ المرأة ـ ياصديقي ـ لا تقوم بعملية اختيار بين رجلين، لأن الإختيار معناه هو عملية مفاضلة يتخللها التفكير والتملي، ولكن عندما تستلذ المرأة باقتراب أحد الرجلين منها ولا تستلذ باقتراب الثاني ؛ فذلك جريان عادي لقانون طبيعي لا يتدخل العقل في تغيير مساره.

ـ لا أظن العقل كان على صواب عندما تخلى عن التدخل في مجال كثير ما يهزم فيه رجال لا يستحقون الهزيمة، وينتصر فيه آخرون لا يملكون من أدوات النصر سوى ذكورتهم.

هز «بييترو» كتفيه باسما دون أن يعلق بشيء.

قال توفيق محاولاً ترجمة ما يدور في خلد «بييترو» ولكنه يترفع عن الإفصاح به:

ـ «استيف» لم يكن سوى عازف «قيثارة» سيء جدا.

فأضاف «بييترو» على ما قاله توفيق:

ـ ولكنه أيضا فارغ القامة ممشوق القوام.

أمسك توفيق بذقنه الأمرد وأطبق بشفتيه على سيجارته فأحس أن مقاتل «التوباماروس» السابق يداري في نفسه خيبة أمل كبيرة في هذا العالم الذي حمل منْ أجل ـ ما كان يعتقده مثالياته ـ البندقية في أصقاع كثيرة منه.

وظل توفيق لحظة وفكره مشغول بتعليق «بييترو» حول «استيف» ووصفه له بأنه ممشوق القوام؛ وراوده الإحساس مرة أخرى بأنه حينما تفضل إمرأة رجلا آخر عن «بييترو» لمجرد أن هذا الرجل كانت الطبيعة أكثر سخاء على هيكله العظمي، فإن هذا العالم قطعا فيه من المعكوسات الثابتة التي لا يمكن تصحيحها لا بالقلم ولا بالبندقية.

عندما مل «بييترو» صمت توفيق ولعله خمن ما يدور في ذهن توفيق قال وهو يتصنع ابتسامة:

ـ إنك تذكرني برفيق كان معي في جبال نيكارغوا، وكنا نمر بفترة قنوط بسبب عزوف الناس عن الإلتحاق بصفوف الثورة، فقال لي ذات ليلة وهو يداعب بندقيته: «لو كان الرجل هو فقط من

يستطيع أن يحمل بندقية من أجل قضية ـ إذا اقتضى ذلك الأمر ـ لأصبح عدد الرجال ضئيلا في هذا العالم الذي يعج بالذكور البشرية . . !

قال توفيق معترضاً :

ـ وكأن الذين يكسبون قضاياهم بوسيلة أخرى غير البندقية ليسوا رجالا .

رد «بييترو» على الفور :

ـ أقصد أولئك الذين لا يمكن كسب قضاياهم بوسيلة أخرى غير البندقية .

ضحك توفيق وقد فهم أن هذا أيضا هو رأي «بييترو» وليس رأي صديقه فقط ثم قال :

ـ أراك لا تزال متطرفاً في اقتراحاتك لحل قضايا هذا العالم .

قال «بييترو» وهو يسترخي إلى الخلف :

ـ بعضها لا تبدو لها حلول .

ـ قد تكون موجودة بيد الله .

فرد «بييترو» على الفور :

ـ لا أظن أن هذا العالم السيء هو من صنع آلهة .

ولم ير توفيق جدوى لتعليقه على ما قاله جليسه فاشعل سيجارة ولازم الصمت ، بينما بدأ يتناهى إلى أسماعهما صوت أوتار «قيثارة» «خويليوس» الذي أخذ يستعد لبدء وصلته الليلية المعتادة .

قال توفيق متسائلا بلهجة بين الجد والهزل :

ـ متى ستعود إلى الأرجنتين ؟

قال «بييترو» وهو يلتفت نحو توفيق وبلهجة لم يكن فيها نصيب للهزل :

ـ غداً أو بعد عام أو بعد جيل !

لم يصدر عن توفيق أي تعليق وأضاف «بييترو» لتبرير هذا الإصرار من جانبه على العودة :

ـ الوطن كالأم ، لابد أن تحن إليه ولو مرة خلال حياتك .

قال توفيق باسما :

ـ يصعب علي الربط بين طرفي المقارنة .

فتساءل «بييترو» بسخرية :

ـ أليست لديك أم ؟

فأجاب توفيق وهو يضحك بصوت عال :

ـ لقد علمت بهذا ولكن كان ذلك متأخراً .

ـ يكفي أنك علمت بأنها كانت موجودة يوماً ليخلف هذا عندك مجموعة من الأحاسيس .

ـ لا أظن ذلك ، لأنني علمت بوجودها عندما لم تكن موجودة حقيقة .

أخذ «بييترو» يهز رأسه بالنفي غير موافق على رأي توفيق .

قال توفيق مدافعا عن وجهة نظره بطريقة أخرى :

ـ حينما كنت ألعب مع الأطفال الذين لهم أمهات أحياء وكنت أعلم أنه ليست لدي أم تناديني للعودة إلى البيت مثل ما تفعل أمهاتهم إلا أن هذا لم يثر في نفسي إحساساً معيناً ، ولربما كان ذلك راجعاً لاعتقادي البسيط في تلك المرحلة بأنه ليس بالضرورة أن تكون لكل طفل أم . وعندما صرت راشداً أدرك معاني الأشياء وأيقنت أنه لابد من أم لكي يوجد طفل . ورغم إكتشافي لهذه العلاقة الجدلية فإن كلمة أم لم تعن لي أكثر مما كانت تعنيه في السابق .

صاح «بييترو» ولربما وجد في ذلك مخرجا من هذا الموقف :
- ها هي «باتريشيا» قادمة، يبدو أنها لم يطب لها قضاء هذه الليلة في مدينة «سينا».

إقتربت «باتريشيا» ضاحكة وعيناها تدوران حول المكان للبحث عن شخص ثالث لم تكن تضمه الجلسة.

قالت وهي تقبل توفيق دون أن تغادر يداها جيبي بنطلونها :
- إنني لا أرى «كازانوفا».

بينما علق «بييترو» :
- يبدو أنه لم ترق لك «سينا» ولو لقضاء ليلة واحدة.

قالت «باتريشيا» ببديهيتها الحاضرة أبدا :
- طبعاً لم ترق لي، لأنها لا يوجد فيها «بييترو» ولا «كازانوفا»

قال «بييترو» وهو يهز رأسه وينظر إلى «باتريشيا» :
- لايوجد فيها خصوصا توفيق.

قالت «باتريشيا» ضاحكة وهي تمد يدها نحو «بييترو» كما لو كانت تريد أن تساعده على النهوض :
- تعال أيها الثعلب. لن يقينا شر لسانك سوى موسيقى «خويليوس».

عبر ثلاثتهم إلى الجهة الثانية، وقبل أن يجلسوا على الرصيف بجانب «خويليوس» الذي حياهم - كعادته - إيماءة من رأسه دون أن تفارق أصابعه أوتار «قيثارته»، صاحت «باتريشيا» وهي تشير بيدها إلى الناحية المقابلة حيث توجد مجموعة من الفتيات :
- ها هو «كازانوفا».

رد «كازانوفا» على تحية الجميع بابتسامة دون أن تفارق يده اليمنى معصم الفتاة التي تجلس بجانبه ولا يده اليسرى كتفي صديقتها التي تجلس في قبالته.

ترنم «خـــويليوس» وصمت الجميع، ورغم أن ظلام هذه الليلة كانت تضيئـه فوانيس الجسر القديم إلا أن «خويليوس» لم ينس اغنيته المعتادة متحديا حلكة الظلام ـ التي لا يراها في تلك الساعة أحد ـ بالنبيذ الأبيض الذي يرى عبر شفافية زجاجته طريقه غدا طويلا مفروشا بالورود تحت سماء غاصة بالأقمار.

الفصل السادس

لم يكن «خويليوس» عازف القيثارة البوليفي ـ الذي لا يتواجد على الجسر إلا بعد منتصف الليل ـ قد وصل بعد عندما كان «بييترو» ينصت إلى «كازانوفا» في رواياته حول النساء.

قال «بييترو» وهو يضحك مطوحا برأسه إلى الخلف :

ـ إنني لا أفهم هذه العدوانية تجاه النساء من رجل مثلك تأبط فوق هذا الجسر ذراع عشرة آلاف امرأة.

وصمت «كازانوفا الجسر القديم» لحظة طويلة خيمت بثقلها على كل ما تبعها بعد نهاية ضحكة «بييترو» العالية. ثم قال بصوت بدا حزينا هذه المرة :

ـ لم أنم في حياتي مع إمرأة.

قال «بييترو» وهو يستفيق تدريجيا من الصدمة :

ـ ولكن هذا غير معقول بالنسبة لكازانوفا.

قال «كازانوفا» واحد منخري أنفه الطويل ينزوي إلى الداخل :

ـ كلكم صدقتم ذلك.

وظل «بييترو» فاتحاً فمه نصف فتحة وكأنه في طريقه إلى أن يقول شيئا أو ليضحك ولكنه ظل هكذا دون أن يفعل أيا منهما.

وأحس «كازانوفا» أنه هو المسؤول عن هذا الموقف وأنه ينبغي عليه أن يقول شيئاً ليضع حداً له فقال :

ـ هذا ليس مهما.

قال «بييترو» وهو يربت بيده على خده كتعبير عن جلالة الخطب :

ـ كيف . «كازانوفا» ولم ينم في حياته مع إمرأة ؟

وعـادت نغمة الحزن مرة أخرى إلى صوت «كازانوفا» وهو يطأطيء رأسه إلى أسفل :

ـ ومع هذا فقد رأيت كثيراً من النساء العاريات .

فهز «بييترو» رأسه وقال على الفور كمن وجد مخرجا :

ـ نعم . أن تتعرى أمامك إمرأة ليس بالضرورة أنها ترغب في أن تنام معك .

وهـز «كـازانـوفـا» رأسـه بطريقة لا تؤكد ولا تنفي ما قاله «بييترو» ، ومرت لحظة تلاشت فيها دهشة «بييترو» فعاد يتساءل مستوضحا :

ـ وما السبب في ذلك ؟

وظل «كازانوفا» صامتاً ويداه مشغولتان بإعداد المخدر الثانية منذ بداية جلستهما المسائية على الجسر . وطال إنتظار «بييترو» لإجابة «كازانوفا» وظلا يتقاسمان السجارة في صمت واحمرت مقدمة أنف «كازانوفا» وتهدج صوته قليلاً وهو يقول بخجل :

ـ لم تودعني الطبيعة سرها !

ظل «بييترو» ساهما لحظة كمن فهم ولكنه رفع رأسه وتساءل فجأة :

ـ عفواً إنني لم أفهم .

فهز «كازانوفا» رأسه وهو ينظر إلى «بييترو» :

ـ يؤسفني أن لا تفهم وأنت المخضرم في عالم النساء .

قال «بييترو» على الفور :

ـ لم يسبق لي أن اعتبرت نفسي كذلك ، ولكن على أية حال

وحسب علمي فإن للطبيعة أسراراً كثيرة مودعة لدى الانسان .
ـ أقصد السر الذي يجعل المرأة تحس بغريزة الأنثى أن الرجل الذي أمامها هو أيضا ذكر !
قال «بييترو» متسائلا باستغراب :
ـ ولكنك ذكر حسب ظني !
قال «كازانوفا الجسر القديم» بلهجة من فرغ صبره :
ـ نعم ولا أظنني إلا أكثرِ فحولة من كثيرين ، ولكن ليس ذلك قصدي .
ـ ماذا تقصد إذن ؟
قال «كازانوفا» بلهجة لا تخلو من سخرية حزينة :
ـ يبدو لي أنه سيتوجب علي أن أشرح أشياء كثيرة لكي تفهم .
قال «بييترو» وهو يهز رأسه ضاحكا بصوت يبدو دائما فيه رنة مميزة :
ـ نعم أنا أيضا يبدو لي ذلك .
قال «كازانوفا» بصوته الأغن :
ـ من بين ما أودعته الطبيعة من أسرار في الذكر ـ يا صديقي ـ شيء بدونه لا يستطيع أن يجعل الأنثى تحس برغبة جنسية خيالية ، حتى وإن كان هذا الذكر ذكياً «وموهوبا ووسيما» ولا يفيده أيضا في هذه الحالة حتى كونه مغازلا من الطراز الأول أو محدثا لا تمل النساء من الانصات إليه .
قال «بييترو» وهو يقلب كفي يديه متعجبا :
ـ إذا كان يحمل كل هذه الصفات فماذا ينقصه لكي يثير رغبة جنسية لدى المرأة ؟
قال «كازانوفا» وهو يهز رأسه وبلهجة لا تخلو من تحسر :
ـ ينقصه هذا السر الجهنمي الذي بدونه لا تجد الأنثى أية

رغبة جنسية حياله حتى لو أعجبتها كل صفاته.

قال «بييترو» وكأنه وقع على حل المعضلة :

ـ هذا أمر طبيعي ، فقد تفضل امرأة ممارسة الجنس مع أحد رجلين ولا تفضله مع الثاني ؛ ولكن قد يحدث العكس تماما مع نفس الرجلين ومع امرأة أخرى.

قال «كازانوفا» وهو يحك مقدمة أنفه حتى احمرت :

ـ إنني لا أقصد قاعدة التفضيل هذه التي تجعل هذه المرأة تفضل أحد هذين الرجلين ففي فرضك هذا، كلا الرجلين منحته الطبيعة هذا السر ؛ أما إذا كان أحدهم محروما من هذا فإنه لن يثير غريزة أي أنثى يلتقيان بها ولو أعجبتها كل صفاته.

ـ ولكنني لم أسمع ولم أقرأ عن هذه النظرية من قبل.

قال «كازانوفا» بصوت ينضح مرارة :

ـ لأن ضحايا هذا القانون الطبيعي هم قليلون إلى الحد الذي لا يلفت نظر أحد وأحيانا يطلقون على هؤلاء صفة «رجل سيء الحظ مع النساء» بينما هم في حقيقة الأمر ضحية لهذا القانون الطبيعي وليس للحظ والميتافيزيقيات الأخرى أي دخل لها في هذا الأمر.

ـ ولكن ألا يمكن التغلب على هذا القانون علميا ؟

ـ لايبدو لي هذا ممكنا.

وأحس «بييترو» بأن الموقف يفرض عليه أن يقول شيئا ولو لم يكن منطقيا ليسري به على نفس «كازانوفا» التي تتصارع فيها رغبات كثيرة مكبوتة فقال بصوت متفائل :

ـ بكل تأكيد سيكتشفها العلم ويتغلب عليها يوماً.

قال «كازانوفا» وعلى شفتيه ابتسامة لم يكن «بييترو» في حاجة لفهم معناها :

ـ على أية حال : يومها قطعا لن أكون موجودا.

صمت «بييترو» وهربت عيناه إلى الناحية الأخرى متشاغلا بالنظر إلى مجموعة العابرين على الجسر وطال الصمت بين الاثنين.

قال «كازانوفا الجسر القديم» بعد أن مل كلاهما الصمت :

ـ أتـرى هذه الفتاة الجذابة ؟ ثم أشار بيده إلى الفتاة التي أخذت تعبر الجسر مرتدية ملابس «جين» رثة تضفي عليها مزيدا من الجاذبية.

ـ قد أتأبط ذراعها وتنصت بشوق إلى أحاديثي وغزلي شهرا على هذا الجسر ولكنها في النهاية إذا قررت ذلك فسوف لن تنام إلا مع رجل آخر غيري في «فلورانس».

قال «بييترو» بلهجـة مواسـاة وهـو يطوح برأسه إلى الخلف ويلوح بيده في الظلام :

ـ كلهن إلى الجحيم !

ـ الجحيم نفسه لا يساوي شيئا أمام ما يتركن من قهر في نفسي.

ـ نعم، إنني أفهم هذا الموقف جيدا.

فرد «كـازانوفا» وهو يتزحزح عن مكانه قليلا ليحرك رجليه اللتين ملتا الجلوس :

ـ لا. إنك لا تستطيع حتى مجرد تصور فهمه، لأنك لم تعشه في أي يوم من الأيام.

قال «بييترو» متسائلا وهو يخرج يديه من كيس التبغ حيث كان في طريقه للف سيجارة :

ـ لقد عشت هذا الموقف مرات عديدة، حيث تركتني نساء وذهبن مع رجال آخرين.

طأطأ «كازانوفا» رأسه إلى أسفل وهو يقول :

ـ قد تتركك امرأة وتذهب مع آخر بعد صراع . كلاكما يملك أدواته . أما إذا خسرت صراعا فرضه عليك الآخرون وانت لا تملك أدواتـه فإن القهر يصبح قهرين : قهر الخسارة مقدما وقهر فرض الصراع عليك .

ظل «بيبترو» يلف سيجارته في صمت ثم اشعلها وسحب منها عدة أنفاس قبل أن يناولها إلى «كازانوفا» الذي كاد أن يختطفها خطفا من بين يديه ولم يعد أي منهما يعلق بشيء وبدا وكأن كلاهما أخذته هيبة الإنصات إلى حديث السيجارة .

وبقي الإثنان ـ بعد انتهاء السيجارة ـ ساهمين فترة طويلة لم تحالف فيها الشجاعة سوى «كازانوفا» ليقطع صمتها الصاخب :

ـ لقد بدأت حركة الجسر تخف

قال «بيبترو» وشفته السفلى تزداد ارتخاء :

ـ قطعا ستزداد أضعاف المرات غداً .

هز «كازانوفا» رأسه وهو يقول مطأطئا إلى أسفل وكأنه يحدث أرض الجسر :

ـ ومع هذا فإن غداً بالنسبة إلي لا يختلف عن اليوم في شيء .

قال «بيبترو» بلهجة أكثر توازن :

ـ ومع ذلك فإنه سيكون قطعا ـ يا عزيزي ـ يوما آخر.

ـ وذلك شد ما يؤلمني !

ـ حتى وان كان فيه جميع الناس سعداء .

ـ عندما تحاول أن تكون سعيدا معهم ولا تستطيع فإنك قطعاً لن تحس بإحساسهم .

قال «بيبترو» بلهجة المواساة :

ـ الحياة مليئة بأشياء أخرى غير النساء .

ـ ومع هذا فإن كل هذه الأشياء بالنسبة إلي لا معنى لها بدون

النساء. وعاد كل منهما ساهما يحملق في المارة دون أن يتفوه بشيء.

بعد لحظة من الشرود لم يكن فيها شيء صامت على الجسر سمع «بييترو» «كازانوفا» يقول :

ـ إن الذي يبكيني أحياناً ليست حياتي المرة. ولكن روعة لذة الحياة التي كانت من نصيب الآخرين.

ـ إذن أنت أناني.

فرد «كازانوفا» بصوت خافت يخفي صراعاً طاحناً بين مجموعة من المشاعر :

ـ هل فهمت من قولي هذا ؟

فوضع «بييترو» يده على رأسه لحظة ثم مد يده الثانية إلى كيسه وأخرج عدة لف السجائر :

ـ اِنتظر حتى ألف سيجارة ويستقيم مزاجي. أظن أنني بدأت أهذي.

أشعل «بييترو» سيجارته وظل يسحب منها انفاساً متواصلة متفحصاً وجوه عابري الجسر في كلا الاتجاهين، ثم التفت نحو «كازانوفا» قائلاً بلهجة جادة :

ـ ألم تحس بالرغبة ولو مرة واحدة في أن تقتل رجلا إستطاع أن يستحوذ منك على امرأة ؟

اِبتسم «كازانوفا الجسر القديم» وهو يطأطىء رأسه إلى أسفل كالعادة :

ـ تقصد أنه استوحذ على امرأة كانت معي وليس استحوذ على امرأة مني. . !

ـ وما الفرق ؟

قال «كازانوفا» وخنة صوته تزداد إرتفاعا :

ـ هن اللائي يتركنني ويذهبن إلى الرجال الآخرين، لأنني

مجرد مرافق لهن فقط، فالرجال لم يستحوذوا مني - في حقيقة الأمر - على شيء كان ملكا لي. فلو كان لجانبي الحيواني أدنى أثر على عواطف إحداهن لكاد يستحيل على أي رجل الاستحواذ عليها مني. ومع هذا فإنك عندما ترى إحداهن وهي مع رجل في موقف كنت تشتهيه أنت فالأمر - لا يبدو لي - وقعه هين على نفسك.

- مطلقا لا يطاق، ولكنني مع ذلك أظل واثقا من أنني استحقها أكثر منه، وكل ما في الأمر أنه هو زودته الطبيعة بسلاح وأخطأت فلم تزودني بمثله، فأنا الذي كان يستحقها لو لم تخن الطبيعة العدل. !!

ووجد «بييترو» نفسه مرة أخرى لا يعلق بشيء ويتخلى عن كلامه للصمت.

وفي هذه المرة أيضا لم يستطع «كازانوفا» إحتمال طول الصمت الذي خيم عليهما فقال وعلى وجهه الشاحب إبتسامة :

- هل تستطيع أن تتذكر كم امرأة استحوذت عليها مني ؟
- إنني في حقيقة الأمر لم أستحوذ على أية امرأة منك.

قال «كازانوفا» وهو يضع يده على ذراع «بييترو» ويهزه بلطف :

- لو أن كل الذين ذهبت معهم كانوا مثلك لكنت في هذه الحالة أنا المهزوم حقيقة ولكان في ذلك إحساسا أكثر بالراحة لي.

قال «بييترو» وهو يتحاشى النظر إلى «كازانوفا» :

- في كلتا الحالتين الأمر لا يختلف كثيرا.
- الإحساس بالعجز أمام التحدي قطعا هو نفسه في كلا الحالتين.

ولكنني ساجد على الأقل سلوة في هزيمتي أمام رجل كان سيهزمني حتى لو عدلت بيننا الطبيعة !

قال «بييترو» دون أن يرفع رأسه :

ـ إنني لا أستصيغ كلمة هزيمة هذه التي تستخدمها .

ـ إنها مجرد طريقة في التعبير.

وفي هذه اللحظة رفع «بييترو» رأسه واطلق صفرة حادة انتبه على إثرها «كازانوفا» .

كان انتباه «بييترو» مشدودا إلى الفتاة التي تقف بجانب تمثال النهضة . طويلة ممشوقة القوام ، ترتدي بنطلونا أخضر ضيقا يبدو عبر انحناءاته رسما دقيقا لتكوين جسدها ، وفانلة بيضاء يبدو خلالها نهداها كسمكتين سمينتين تتراقصان فوق صدرها وشعرها الأشقر الغلامي . التسريحة تبدو وكأنها زهرة اقحوان تختلف عن كل ما حولها من المنبوتات .

عندما غادرت المكان قال «بييترو» ونظراته تتبعها وهي تسير ببطء متجه نحو وسط المدينة .

ـ أنظر إلى الجزء الأسفل من جسدها الإنسيابي ، إنه كقارب صغير خرج لتوه من عاصفة وأخذ يقترب متهاديا من المرسى .

فهز «كازانوفا» رأسه قائلا :

ـ ألا تعرفها ؟

ـ لسوء الحظ لا أعرفها شخصيا ولكنني ألمحها في «فلورانس» منذ مدة ليست قصيرة .

ـ إنها ليست من اللائي يرتدن الجسر كثيرا .

ـ أنت تعرفها قطعا .

ـ لربما كنت أول رجل تعرفت إليه في «فلورانس» .

ـ ومن تكون هي ؟

- إسمها «كيم» دنماركية من مدينة «روزبيرق»، أتت تدرس اللغـة الإيطالية وتعمل حاليا في بعض بيوت الأزياء، وهي أجمل نساء الشمال اللائي زرن الجسر القديم منذ صيفين على الأقل !

- أنت أكبر ذواقة جمال في هذا العالم.

ضـحك «كازانوفا» ضحكة خرج صوتها من منخريه. ووجد «بييترو» في حديثهما منحا يبعدهما عن موضوعهما السابق الذي أثار الكثير من أشجان «كازانوفا» :

- لو أنصف العالم لاعتبر الجسر القديم أحد مناطق إنتخاب ملكة الجمال ولخصصت جائزة خالدة على مر العصور يطلقون عليها اسم «جائزة كازانوفا الجسر القديم للجمال».

وانفجـر «كازانوفا» ضاحكا وقد راقت له الفكرة كما أحس «بييترو»، ان اقتراحه وقع كبلسم على جرح غائر نازف على الدوام في نفس «كازانوفا» فقال «بييترو» وهو يضرب بيده على ركبته للتعبير على دهشته :

- هذه فكرة لم تخطر على أحد قبلي.

- لقد راودتني الفكرة نفسها مع فارق واحد وهو أنني اخترت للجائزة اسم «جائزة الجسر القديم للجمال».

- إنني لم أتناس الجسر القديم ولكنني أضفت إليه إسما آخر يستحق التخليد.

فضحك «كازانوفا» مداريا خجله :

- الجسر القديم أخلد من أي اسم بشري.

- بالنسبـة إلي : الجسر القديم بدون «كازانوفا» تزول عنه إحدى خاصياته ويفقد معانيا كثيرة.

فعلت وجـه «كـازانوفا» إبتسامة ارتياح وهو ينظر إلى الجهة الأخرى. دون أن يعلق بشيء.

قال «بييترو» :

- إذا كنت في صيف العام القادم هنا، فإننا سنقيم ولو حفلا رمزيا نتوج فيه أجمل امرأة مرت بالجسر القديم، وسنشترط أن يقيم أعضاء التحكيم على الجسر بداية من يوليو حتى نهاية أكتوبر لكي يصدروا حكما نزيها والتي تفوز بهذا اللقب نعلمها بذلك في بلادها بواسطة العنوان الذي تتركه لدى اللجنة.

- أجمل ما في هذه المسابقة هو أن المشتركات فيها لا يدرين أنهن مرشحات لها.

ثم تساءل «كازانوفا» :

- أسيحدث هذا في العام القادم ؟

فهز «بييترو» رأسه :

- نعم. في الصيف القادم ان لم تحل الظروف دون ذلك.

فطأطأ «كازانوفا» رأسه إلى أسفل قائلا بلهجة حزينة :

- الصيف القادم لا يزال بعيدا.

- لا. لم يعد بعيدا، ها نحن في نهاية شهر سبتمبر وعن قريب سيبدأ الخريف ثم يليه الشتاء وفي نهاية الربيع سنجد انفسنا مرة أخرى في بداية الصيف القادم !!

- وهل ستبقى هنا حتى الصيف القادم ؟

- حتى لو سافرت فإنني سأعود الصيف القادم أو أي صيف آخر.

- يندر أن يزور صعلوك الجسر القديم مرتين في حياته.

فضحك «بييترو» :

- إنني لا أنفي عن نفسي هذه الصفة، ولكن لماذا لا يزور صعلوك الجسر القديم مرتين في حياته ؟

أجاب «كازانوفا» :

- إذا زار الشخص الجسر القديم مرة وهو صعلوك فإن المرة الثانية لا تكون إلا حنينا لذكرياته عندما كان صعلوكا !

ولم يرد «بييترو» وظـل يحك زاوية فمه بباطن ابهامه وانقطع الحديث بينهما فترة ليست قصيرة.

قال «بييترو» وهو يشير بيده إلى إحدى جهات الجسر :

- ما رأيك في هذه ؟

إستـدار «كـازانـوفـا» فرأى «باتريشيا» تسير بجانب توفيق صاعـدين الجسر من ناحية الغرب في اتجاههما. بدت «باتريشيا» وهي تسير بجانب توفيق، فارغة القامة ترتدي بذلة عمال الورش الزرقاء جديلتها الشقراء تتدلى فوق كتفيها فتبدو هذه الأخيرة وكأنها ثعبانا اشقر يتسلق قطيفة سوداء. كانت الابتسامة تبدو على تقاطيع وجهها المتوهج حمرة تحت ضوء المصباح القائم على الجهة اليمنى من الجسر.

قال «كازانوفا» ونظراته لم تحد عنها :

- إنها أجمل من زرن الجسر القديم صيف هذا العام.

تبـادل أربعتهم التحية وجلس توفيق بجـانب «بييترو» بينما ظلت «باتريشيا» واقفة بجانب «كازانوفا» ثم وضعت يدها على رأسه قائلة :

- هذا أول رجل تصدى إلي على الجسر القديم !

فرد «كازانوفا» دون أن يرفع رأسه :

- ولكنه لم يكن آخرهم !

قالت وهي تهم بالجلوس :

- ولكنه كان أولهم.

قال «كازانوفا» وهو ينقل نظراته بين «باتريشيا» التي جلست إلى يساره وتوفيق و«بييترو» الجالسين على يمينه :

ـ الأولوية في مثل هذه الحالة ليس لها معنى تستحق من أجله الـذكـر. وانفجـر ثلاثتهـم ضاحكـين، كل منهم على قدر فهمـه للعبارة. وفي هذه اللحظة أخذ نغم القيثارة يعلو على صوت الجميع وارتفـع صوت «خـويليوس» بنبرته المميزة، فأدرك مخضرمو الجسر القديم ان الساعة قد تجاوزت ـ دون شك ـ منتصف الليل وذلك هو الوقت الذي يبتديء فيه «خويليوس» وصلته حيث يخلو الجسر من كل العـازفـين الآخرين، لأن «خويليوس» لا يريد أن تختلط نغـمات قيثـارته وصوته بنغمات وأصوات العازفين الهواة والمتطفلين ونهض أربعتهم بشكـل تلقـائي وعـبروا رصيف الجسر إلى الجهة الجنوبية وجلسوا بجانب «خويليوس» الذي حياهم بإيماءة من رأسه دون أن يقـطع غنـاءه؛ كان قد انتهى من الأغنية الشعبية التي يفضلها الجميع والتي يفتتح بها دائما وصلته المسائية «وانتانامبرا» وبدأ اغنيته التي ألف كلماتها هو ويحرص على أن تكون دائما ثانية أغانيه في جميع وصلاته المسائية على الجسر القديم، وارتفع صوته جهوريا مؤثـرا، ذبـذبـاته متقطعة، فيراود بعض مستمعيه الاحساس بأن صوت «خويليوس» يصل إلى أسماعهم قادما في ذات اللحظة عبر جبـال بوليفيا وغـابات الأمازون. كلمات أغنيته لا تتغير وان كان يطيل أحيانا مقاطعها أو يقصرها حسب حماسة مستمعيه:

ـ في الليلة الظلماء اشرب النبيذ الأبيض وانظر في الزجاجة الفـارغة، فأرى عبر شفافيتها طريقي غدا طويلا مفروشا بالورود تحت سماء غاصة بالأقمار.

إزداد الجسر اقفـرارا من مارتـه بينـما تردد في جنباته صوت «خويليوس» وقهقهات «باتريشيا» المميزة وتعليقات «بيبترو» وتأوهاته المحمومة ولم يعد هناك من مستمع إلى روايات وأشجان «كازانوفا».

الفصل السابع

هذا صيف مضى وأنا أعزف لهم كل ليلة دون أن يسألني أحد منهم عن سر أصابع يدي الأربع المقطوعة من منتصفها.

ويعود «خويليوس» إلى اختبار نغمات أوتار قيثارته ودوزنتها بأصابع يده اليمنى السليمة.

يصيح «بييترو» ساخرا : هيا. دعنا من هذا التدلل. اعزف أو ناولني هذه القيثارة.

تعارضه «باتريشيا» : أتمنى أن لا يفعل ذلك.

ـ وما دهاك أنت.

ـ إذا رأيت القيثارة بين يديك فإنني سأهرب قبل أن أرى هذه الجريمة ترتكب أمامي!

ـ ما أكثر نساء هذه الليلة !!

تمسك «باتريشيا» «بييترو» من كتفه وتهزه بلطف وهي تعنفه : رحماك أيتها السماء، فلا تبعثي إلينا بمثل هذا الصنف من البشر.

شرع «بييترو» يديه إلى السماء ضارعا متوسلا بلغة اسبانية لم تفهم منها «باتريشيا» كلمة واحدة.

ـ كفاك نفاقا. انني على يقين من أنك لم تضرع للسماء ولو مرة واحدة منذ أن ولدتك امك.

تراجع «بييترو» نحوها متهدج الصوت كمن كان في حالة مناجاة مع المطلق : ها قد فعلتها هذه الليلة، لأن الخطب جلل!

ـ أصحيح ما تقول ؟

ـ نعم يا صديقتي.

ـ وبماذا كنت تناجي السماء ؟

إلتفت «بييترو» نحو توفيق وغمزه من طرف عينه : كنت أطلب العون من السماء لكل رجل يقضي سحابة يومه مع امرأة طويلة اللسان !

تضع «باتريشيا» يديها على أذنيها : انني لا أسمعك، أيها الثعلب : هذا ما تشاء. طفق «توفيق» و«بييترو» يقهقهان بينما أخذت انغام قيثارة «خويليوس» تزداد ارتفاعا وتطغى على أصوات وتعليقات الآخرين.

ألقي بهذا الفن الحقير في مؤخرة العربة.

ـ إنه فاقد الوعي يا سيدي «القومندان». دعنا نجهز عليه ونتركه هنا بجانب الآخرين.

ـ قلت لك أحمله إلى داخل العربة.

إننا نحتاجه حيا، ولا تنسى قيثارته، ضع قلادتها في رقبته القذرة.

ـ سيدي «القومندان». الفتاة أيضا لا تزال حية، هل نحملها إلى العربة ؟

ـ لا حاجة لنا بهذه الغجرية الفاجرة ؛ أجهزوا عليها.

يرفع «خويليوس» صوته مترنما لكي يطرد من ذاكرته ركام هذه الأحداث الثاوية في قاع حطام الماضي.

ترتفع صيحات المستمعين مهللين لبدء الوصلة الغنائية مرددين مقطع الأغنية المفضلة لديهم : خونتاناميرا. وهيرا خونتا ناميرا.

الجزء الجنوبي من الجسر لم يعد فيه مكان لقاعد. كتلة بشرية

متراصة تلتحم فيها أجساد الذكور بالإناث، ودخان التبغ يتصاعد سحبا كثيفة تختلط بشعاع مصابيح أقواس الجسر فيصير أعمدة شفافة تتمايل في دلال إلى أن يفترسها الفراغ القابع خلف الظلام .

ـ إذن لا تريد أن تحدثني عن علاقتك بهذه العصابات أيها النذل .

ـ ليست لي علاقة بأحد .

ـ حسناً . على مهلك أيها الحقير.

ضعوا الكلاب الكهربائي في مؤخرة هذا الكلب .

ـ آه . فكوا عني . اِرحموني من هذا الجحيم .

ـ كم تفتح شهيتي رائحة الشواء وكم يطربني عواء الكلاب .

ـ اقتلوني إذا كنتم رجالاً حقا .

ـ سنقتلك أيها الكلب، ولكن ليس قبل أن تجيب عن أسئلتي .

إقلبوه على الجانب الآخر.

ـ تكلم ما علاقتك بهذه العصابات الآثمة ؟

ـ إنني مطرب جوال .

ـ وماذا كنت تغني ؟ قل لي ؟ لمصلحة من كنت تنبح أيها الكلب الأبتر ؟

ـ آه . آه .

ضاعفوا قوة التيار لكي نسمع عواء هذا الكلب .

ـ أغني للفلاحين عن الأرض البكر. وعن سيقان القصب الطرية .

ـ كنت تغني لهم عن الأرض أم كنت تنشر بينهم الأباطيل والأوهام التي تروجها العصابات الشيوعية المجرمة ؟

ـ كنت أغني للشمس كلما رأيت شعاعها يتبدد فوق الحقول المحروثة.

ـ كنت تنبح باسم عصابة آثمة زرعها أعداء «بوليفيا» بين فلاحينا الطيبين الكرماء.

ـ كنت أغني للشمس وللأرض.

ـ بل كنت تنبح كغيرك من الكلاب تمجيدا لعمليات السطو والنهب التي تقوم بها حفلة من الأشقياء المأجورين.

يتوقف «خويليوس» عن الغناء ويريح قيثارته بحنو على ركبتيه. يناوله أحد المعجبين سيجارة ملفوفة مشتعلة فيقبض عليها بلهفة بين أصابعه ويسحب منها عدة أنفاس متتالية ثم يترك رأسه يتدلى إلى أسفل. الذين يعرفون «خويليوس» لا يتكلمون معه أثناء فترة استراحته بين وصلة غنائية وأخرى. يظل صامتا مطأطئا رأسه إلى أسفل، يدخن بشراهة ونظراته مغروسة في الأرض.

إلتفت «بييترو» نحو توفيق فوجده مستغرقا في صمته فأخذ يهزه : في أي العوالم كنت تسبح ؟

ـ إنني هنا. ولكنني كنت أصغي إلى وقع خطوات الصمت القادم نحونا من بعيد.

أنفاس نهر «أرنو» نسمات صيفية عاشقة تسافر في ليل الجنوب. تسري قشعريرة ريح شمالية عبر الأجساد الفائرة المتلاصقة فتداعب فيها أحلام العشق والخوف والحزن، والمغامرة والفرح والشهوة البكر.

ـ سأعطيك فرصة لا تحلم بها أيها الكلب، سأجعلك تشارك في لعبة يانصيب الحياة، لدينا ثلاثة أوغاد مثلك وقعوا في أيدي دورياتنا وهم يحرضون الفلاحين على التمرد. سنجري القرعة

بينكم. انظر هذه أربع ورقات ملفوفة. في واحدة منها فقط كتب كلمة حياة. فمن يسحبها سنبقي عليه حيا.

- يا لك من إلـه عادل.

- أنا إله هذه الأودية وهذه الجبال. أعرض نفسي وجنودي للموت كل يوم لاحميها من عصابات الخونة المارقين. وأنت، أيها الكلب الأجرب، تتغنى بجرائمهم وتشبههم بالقديسين.

- أين «روزا مارية» ؟

- أتعني الغجرية الفاجرة التي قتلناها ليلة مداهمتنا للقرية.

يهرع «خـويليوس» إلى قيثـارتـه ليهرب من تداعي مخزون ذاكراته، فتحلق به الكلمة وتستغرقه روحانية النغم.

يمسك الجميع عن الحديث ويكفون عن الثرثرة والهمس. ينـطلق صوت «خـويليوس» ويزداد جهـورية كلما تقـدم الليل في «فلورانس» وتلاشت الحركة على الجسر القديم ولفه السكون.

تنهض «بـاتـريشـيا» لتـخلع قبعـة القش من على رأس «خـويليوس» وتلقي في داخلها ببضعة ليرات ثم تضعها أمامه في محاولة منها لافهام الذين يحضرون سهرة «خويليوس» لأول مرة بأن هناك عرفا متبعا اقتضته أحوال «خويليوس» المادية.

ينهض «كـازانـوفـا» فيلقي بقـطعـة من النقود ثم يعود إلى صديقته التي تعرف عليها هذه الليلة :

- «خويليوس» لا يغني لأجل النقود ولا يطلبها رغم حاجته إليها. ولكن درجت العادة بيننا على أن يقوم كل من يستطيع منا بوضع شيء من النقود في قبعته حينما يكون مستغرقا في أدائه، ولا نفعل ذلك في فترة استراحته لأن هذا يؤذيه كثيرا.

- أليس لديه مصدر رزق آخر؟

- لا أظن ذلك.

ـ ألا تعرفه .

ـ كلنا . هنا نعرفه . ولكن لا أحد له علاقات وطيدة معه إلى الحد الذي يعرف عنه كل شيء . فهو لم يحضر إلى «فلورانس» إلا في بداية هذا الصيف ، ورغم أنه شخصية ظريفة إلا أنه يقضي معظم وقته منعزلا وحيدا ولا يأتي إلى الجسر القديم إلا مع منتصف الليل ، أما بقية النهار فيقضيه في حديقة الشعب ، كما أنه لا يتكلم سوى اللغة الاسبانية .

يقطع «كازانوفا» حديثه وهو ينظر إلى سيارة دورية الشرطة التي بدأت تعبر الجسر من جهة الغرب وهي تسير ببطء وكأنها تدب دبيبا متجهة حيث يوجد الساهرين . يصيح محذرا بلهجة كوميدية : ايه انتم هناك ! ألا تعلمون أنه ممنوع مرور الآليات فوق الجسر القديم ؟

تتــوقف السيارة بمحــاذاة الــرصيف الـذي يجلس عليه الساهرون ، ثم يخرج رجال الشرطة رؤوسهم من خلال نوافذ العربة ليتفحصوا وجوه الجالسين .

يتمتم «كازانوفا» : «مادونا كول بنبينو» .

يستمر الشرطة في موقفهم الاستفزازي دون أن يترجلوا من السيارة ويستمر الجميع في تجاهل وجودهم ولا يتوقف «خويليوس» عن العزف .

تميل «باتريشيا» نحو «بييترو» هامسة في تبرم : لا أعتقد أن هناك شيئا يثير الحقد في نفوس هؤلاء أكثر مما يثيره رؤيتهم لمجموعة من الشباب في حالة فرح وطرب .

يستدير نحوها «بييترو» وهو يضع سبابته بالقرب من شفتيه المزمومتين .

تتراجــع «بــاتريشيا» نحو توفيق : انظر كيف يبدو «بيبترو» عندما يتصنع الخوف.

لكن توفيق يتجـاهـل تعليق «بـاتريشيا» فتهز هذه الأخيرة كتفيها وتعود إلى الصمت.

يصيح أحد الجالسين متذمرا : أريد أن اتنفس، متى يعود هذا الجو الخانق الى صفائه.

يضحـك حتى أولئك الذين لا يفهمون الانجليزية وذلك ليقين الجميع بأن ما قيل قطعا لا يحمل اطراء للشرطة.

يقطع «خويليوس» مواله الغنائي ويكتفي بعزف منفرد.

تتحـرك السيارة نحـو وسط المدينة بينما يظل أفراد الشرطة يطلون برؤوسهم من نوافذها ليتفحصوا الوجوه التي يمرون بها على طول الرصيف. وما أن وصلت السيارة إلى نهاية الجسر مبتعدة عن المكان، حتى نهض «كازانوفا» والتفت في اتجاهها : «فاشيستا».

قال «بيبترو» صائحا :

ـ لا تراعــوا. كل ما في الأمـر أنهم أرادوا أن يضيفـوا إلى معلوماتكم شيئا جديدا وهو أنه لا يسمح لأي آلية في العالم بالمرور فوق الجسر القديم عدا سيارة شرطة «فلورانس».

تسأله «باتريشيا» ساخرة :

ـ ماذا أصابك ؟ لقد كنت حملا وديعا منذ لحظة قصيرة.

ـ كنت خائفاً يا صديقتي !

يتوقف «خويليوس» عن العزف فيناوله أحدهم سيجارة.

ـ ألا تسمع ما أقوله أيها الكلب الأجرب، اسحب واحدة منها، قلت لك.

ـ إنني أتخلى عن حقي في المشاركة في هذه اللعبة.

ـ ومن أين لك هذا الحق أيها الصعلوك الحقير؟ افتحوا هذا الزر ليحرق قفاه النتن!

لن نوقف التيار حتى تدخل رأسك في الصحن وتسحب إحدى هذه الورقات بلسانك.

نعم هكذا أيها الكلب، لقد بدأت تفهم. خذوا منه الورقة واقرأوا ما بداخلها.

ـ حياة يا سيدي القومندان!

ـ لقد فزت بها أيها الشقي، ولكن سأجعلك عبرة لكل من يراك من هؤلاء الصعاليك الذين قد تسول لهم أنفسهم أن يسلكوا ما سلكت.

ـ سيدي «القومندان». لقد غاب عن الوعي.

ـ إحملوه سأراه في يوم آخر.

يعود «خويليوس» من رحلته، يلملم أشلاء أفكاره فينساب النغم من أوتار قيثارته ويتدفق صوته فيغمر المكان ويحتوي ما فيه من ثرثرة وضحك ومناجات. ينطلق في أغنيته المفضلة واصفاً لهم زجاجة نبيذ ليست كهاته التي يحتسونها ومخبراً إياهم عن طريق مفروش بالورود، وعن أقمار لا يراها أحد غيره في هذه الليلة الصيفية تحت قبة سماء «فلورانس». يطيل في بعض مقاطعها ويكررها عندما يحس بأنها لاقت إستحساناً لدى مستمعيه.

يتساءل من لا يفهمون الاسبانية عن معنى بعض الكلمات.

تقول صديقة «كازانوفا»:

ـ لماذا لا يغني بالانجليزية.

ـ إنه لا يفهم الانجليزية. وأظنه أيضا لا يفضل الغناء بهذه اللغة.

تميل «باتريشيا» نحو توفيق :
ـ ألا ترى أن صديقنا «خويليوس» شخصية غريبة الأطوار.
ـ ومن منا لا تناسبه هذه الصفة.
ـ إنني أفهم هذا. ولكننا اجتماعيون رغم ذلك. أما هو فلا تتعد علاقاته مع الآخرين عبارات المجاملة والابتسامات الخجولة.
ـ وهل تريدين منه أن يجلس على رصيف الجسر القديم، يقدم نفسه للناس ويروي لهم تاريخ حياته.
تخزه «باتريشيا» في كتفه كعادتها كلما أرادت أن تعاتب توفيق بلهجة بين التلقائية والسذاجة :
ـ ما هذه المصيبة ؟ يجهد نفسه لأجل ألا يفهمني. أقصد انك لا يمكن أن تراه برفقة انسان آخر، ولا يطيل الجلوس مع أحد. رغم حرص الكثير على أن يكون صديقاً لهم.
ـ بل فهمت ما تقصدين. تريدينه أن يكون مشاكسا ثرثارا، يناكف الناس ويعترض سبيل النساء في شوارع «فلورانس» مثل هذا المخلوق. «مشيرا إلى بييترو».
ـ أتسمع ما يقوله عنك ؟
يرد «بييترو» دون أن يلتفت :
ـ نعم لقد سمعته، ولكن هذا لن يمنعني من النوم ملء جفوني كعادتي كل ليلة.
يتوقف «خويليوس» عن العزف ويتشاغل بشد أوتار قيثارته.
ـ لقد قررت أن أطلق سراحك أيها الكلب، ولكن ليس قبل أن أقطع جزءاً من لسانك لتكف عن النباح، أو أبتر أصابع يدك القذرة التي تعزف بها، لتكون عبرة لكل صعلوك آخر تسول له نفسه الحقيرة تمجيد عصابات الخونة وقطاع الطرق. هيا اختر واحدة من هذه الأوراق، لقد صرت خبيرا الآن !

ـ أرجوك دعوني أن أبقى في السجن وأتخلى عن حقي في هذا الخيار.

ـ أنا الذي أعطاك هذا الحق أيها الصعلوك فلا تستطيع التنازل عنه بإرادتك المنفردة. افتحوا التيار ودعوه يمر في مؤخرة هذا الكلب الأجرب.

يستأنف «خويليوس» العزف، نغماته قصيرة، حادة، متلاحقة،.. وكأنها استشعار لخطر داهم أو استباق لمأساة قادمة تحث خطاها على الطريق. هذه المرة يتفجر صوته من حنجرته كانهيار جسر في ليلة صيفية هادئة. يردد أغنيته التي يفهم مطلعها حتى أولئك الذين لا يعرفون اللغة الاسبانية:

ـ «اديوس بوليفيانو... كوماندانتي تشي جيفارا» وداعا أيها البوليفي، وداعا تشي جيفارا.

ينهض «بييترو» متأبطا خرجه فيمسك به توفيق متسائلا:

ـ ماذا في الأمر؟

ـ أريد أن أذهب إلى النوم.

ـ ومتى كنت تذهب إلى النوم في مثل هذه الساعة؟

ـ أحس برغبة في مغادرة المكان، ثم انني لا أفضل الاستماع إلى الأحياء وهم يغنون لامجاد الموتى!

يتركه توفيق دون أن يعلق بشيء فيتسلل «بييترو» متحسسا طريقه بين السيقان والأرجل المتشابكة حتى نهاية الرصيف.

تستدير «باتريشيا» نحو توفيق:

ـ هل تعتقد أن «بييترو» قد أزعجته حقا هذه الأغنية؟

ـ هكذا قال.

ـ ولكنه كان يسمعها كل ليلة ولم يسبق له أن غادر الجسر قبل نهاية وصلة «خويليوس» الغنائية.

هز توفيق كتفيه كعادته عندما يضيق بملاحظات «باتريشيا» الدقيقة وتساؤلاتها الفضولية.

توقف «خويليوس» عن العزف وأخذ يلف سيجارته على مهل :

- «إلتقطها بلسانك أيها الحقير، مثلما فعلت في المرة السابقة. نعم هكذا».

إفتحوا الورقة واقرأوها.

- بتر أصابع اليد اليسرى من منتصفها. «سيدي القومندان».

- ها أنت يحالفك الحظ مرة أخرى أيها الصعلوك. لقد وددت أن أقطع لسانك هذا حتى تكف عن النباح.

خذوه ونفذوا ماجاء في الورقة ثم ألقوا به في المكان الحقير الذي التقطناه منه. أريده عبرة لكل ابن فاعلة قد يفكر في استغلال موسيقانا الشعبية في أوساط البسطاء لنشر المبادىء الملحدة وتمجيد عصابات الخونة والعملاء.

- أين روزا ؟ ماذا فعلتم بها ؟

- أتقصد الغجرية الفاجرة التي قتلتها «دوريتنا» وهي تحاول الهرب.

يرفع «خويليوس» رأسه إلى أعلى بعد أن يسحب آخر نفس من سيجارته، ثم تحتضن أصابعه القطعاء أوتار قيثارته فتذوب لحنا.

يرفع صوته ويعود من جديد إلى أغنيته المفضلة : في الليلة الظلماء اشرب النبيذ الأبيض وأرى في شفافية زجاجته طريقي غدا طويلا مفروشا بالورود تحت سماء غاصة بالأقمار.

ينهض توفيق وتتبعه «باتريشيا» قبل أن ينهي «خويليوس» أغنيته، لأنهما يعرفان أن «خويليوس» يبدأ سهرته بهذه الأغنية ويختتمها بها.

ظلا كعادتهما يسيران ببطء وهما عائدان إلى البيت حتى ينتهي المقطع الأخير من الأغنية، وما أن وصلا إلى نهاية الجسر القديم حتى توقف «خويليوس» عن العزف، وامتطت النغمة اليتيمة نسمة شاردة تعدو نحو مرابع النجوم البعيدة.

الفصل الثامن

قال «بييترو» وهو يتمهل قبل أن يحتسي الجرعة الأولى من زجاجة النبيذ الأحمر الذي ناوله إياها توفيق :

ـ هل سبق لك أن رأيتني احتسي الخمر ؟

ـ لقد رأيتك تفعل أسوأ من هذا .

تناول «بييترو» جرعة كبيرة ثم مسح شفتيه بخارج كف يده ومسح بباطنها فم الزجاجة قبل أن يناولها إلى جليسه قائلا :

ـ نعم ، ولكن هذا ليس موقفا من الخمر وإنما قرحة معدتي لا تسمح لي بذلك ، ولهذا فإنني فضلت ذلك الذي تسميه الأسوأ .

ـ إذن أتركها لي .

قال «بييترو» وهو ينظر إلى الزجاجتين الأخريتين اللتين يضعهما توفيق بجانبه :

ـ دعني أفعلها هذه الليلة . . لقد مضى علي قرابة عام لم أتناول كحولا .

ـ ولكنك ستتألم كثيرا فيما بعد .

ـ لن أموت على أية حال . سأنادمك أيها الهندي الأحمر .

هكذا يلقب «بييترو» توفيق .

كان المساء في بدايته وساحة «سانت اسبيرتو» لم تكتظ بروادها بعد .

كانت بعض المجموعات تدخل إلى الساحة من حين إلى آخر عبر أحد الشوارع الثلاثة المؤدية إليها . أضواء الوسط مضاءة جميعها

ينعكس جزء منها على مواجهة الكنيسة التي يجلس كل من «بييترو» وتوفيق على أحد مدرجاتها التي تشغل حيزا من الجزء الشمالي الشرقي من الساحة. في الطرف الجنوبي من الساحة يوجد مقهى وبار بجانبه، تحيط بكليهما حديقة صغيرة شجيراتها اصطناعية، وفي الجهة الشمالية المقابلة يوجد مطعم ترتاده العائلات الفلورانسية الميسورة، تتوسط الساحة النافورة الكبيرة التي تحيط بها بعض الشجيرات فتحجب أضواء المصابيح عنها فيبدو الجالسون على جنباتها للناظر إليهم من على مدرجات الكنيسة المرتفعة كشخوص مشهد تتحلق في نقطة مظلمة يحاصرها الضوء من كل جانب. بينما أنتشرت حولها وعلى بعد مسافة قصيرة منها عدد قليل من المقاعد الحجرية مشغولة على الدوام بالقاعدين وكأن ذلك يتم بطريقة وراثية.

عندما تقدم المساء واكتظت المدرجات الواقعة أمام الكنيسة برواد الساحة ولم يعد هناك مكان لقادم جديد، وازدحمت حديقة المقهى والبار المتجاورين في الطرف الجنوبي من الساحة بزبائنها ولم يعد هناك مقعد شاغر. وقف «بييترو» وهو يلقي بالزجاجة الثانية فارغة ثم امسك بيد توفيق قائلا :

- أنظر إلى هذا المسرح يا له من مشهد يتكرر كل ليلة صيف.

فنهض توفيق ثم قال بعد أن تراءى له المشهد الذي شد «بييترو» :

- إنه مشهد طبيعي يعاد فيه تمثيل مشكلة لم تجد لها البشرية حلا منذ عرفت معنى الملكية.

فأضاف «بييترو» وهو يلعق بلسانه لعابه الذي سقط فجأة على شفته السفلى ودون أن تحيد نظراته عن ذات المشهد :

- كذلك من يملك ومن يملك أقل منه.

كانت ساحة «سانت سبيرتو» بالنسبة لمن ينظر إليها من المكان الذي يقف فيه «بييترو» ـ وهو أعلى مكان في المدرج ـ بمثابة مسرح يبدو فيه المتفرجون جزءاً من المشهد ؛ فالجزء الشرقي الجنوبي من الساحة والذي لا تصل إليه أضواء وسط الساحة يبدو معتما تتراص فوق مدرجاته كتلة بشرية تصدر عنها لغات مختلفة. هيئة معظمهم رثة أو متسخة يحتسي غالبيتهم نبيذ «زنزاني» الأحمر الرديء الرخيص الثمن والذي تظل حانته مفتوحة إلى ساعة متأخرة من الليل، بينما يغمر حديقتي المقهى والبار الضوء ويبدو معظم زبائنها على قدر من الأناقة يتناولون أنواعا راقية من الكحول والمرطبات والوجبات الخفيفة. على هذا المشهد أطلت من جهة الشمال الأضواء الصادرة عن قبة كنيسة «سانت كارمين» خلف المنازل البعيدة، ومن جهة الجنوب أطلت الأضواء الصادرة عن قمة متحف قصر «ميديشي» فبدا وكأنهما كشافان متقابلان تتقاطع اضاءتهما في سماء المسرح دون أن تتأثر بهما أحداث المشهد وشخوصه.

قال توفيق وهو يمسك بيد «بييترو» ليعيده إلى الجلوس :

ـ ما كان غيرك ليكتشف هذا في وقفة عجولة كهذه.

لم يعلق «بييترو» بشيء وعاد إلى مكانه ثم تناول الزجاجة الثالثة وقال وهو يفتحها :

ـ سيلزمنا شراء واحدة أخرى قبل أن يقفل هذا المحل التعس !

ثم أخذ يهبط المدرجات متخطيا مئات السيقان باحثا عن فجوة هنا أو هناك بين الأجسام المتلاصقة ؛ تصطدم قدماه من حين لآخر بزجاجة فارغة فتتدحرج أمامه حتى تصطدم بأحد الجالسين، بينما ظل توفيق جالسا في مكانه وأحس وهو يعقد داخل نفسه مقارنة بين المحيط الذي يجلس فيه ومجتمع حديقتي المقهى والبار

المضيئتين : بأن العلائق بين أفراد ذلك المجتمع أكثر تعقيدا وأقل تلقائية من تلك التي بين أفراد هذا المحيط الجالس في وسطه، فمشاعر الاستلطاف تتحول في خلال ساعات إلى صداقة ومودة يفضي فيها كل إلى الآخر بخصوصياته وأشجانه الشخصية. كما أن العواطف بين الجنسين تنمو بسرعة ودون أدنى جهد مصطنع ؛ أما في المنطقة التي يغمرها الضوء فالحوار بين الناس فيها يتم بواسطة العيون ولا يجرؤ إلا القليل على تطويره إلى حوار بالكلمات، وإن حدث هذا فإنه يندر أن تتولد عنه صداقة في التو واللحظة أو خروج رجل وامرأة متعانقين بعد نهاية السهرة.

عاد «بييترو» يلهث متأبطا زجاجته وهو يقول :

ـ يا لها من خسارة.

ـ ماذا جرى ؟

ـ لا شيء. ولكن إذا بقينا هنا فلن نسمع قيثارة «خويليوس» ولن نعرف آخر مغامرات «كازانوفا» هذه الليلة.

ـ ولكنك لم تكمل بعد ما كنت تحدثني عنه.

عاد «بييترو» للحديث عن ذكريات طفولته وهو يضع يده على كتف توفيق وكأنه يواسيه :

ـ لم تكن طفولتي شقية مثل طفولتك، فقد كان أبي تاجر أخشاب معروف في «بينوس ايرس» وكنا نقطن في قصر صغير في حي الطبقة الغنية من التجار ووكلاء الشركات الأمريكية والجنرالات، ودخلت كبقية أبناء هذا الحي المدرسة الخاصة، وهذا هو السبب الذي وراء إلمامي بهذه اللغات الأربع التي تراني أناكف بها رواد الجسر القديم، فقد كانت الانجليزية والألمانية والفرنسية والإيطالية لغات إجبارية في المدرسة الخاصة وينبغي على أبناء البورجوازيين من سلالة الهنود الحمر أن يجيدوها لكي يصيروا أناسا

يمكن التعامل معهم من المنظور الانساني الأوروبي. كنت آخر الأبناء فكان والداي يدللاني كثيراً غير أن أبي كان كثير الأسفار أما والدتي فكانت متدينة طيبة معتلة الصحة. كانت حياتنا محصورة ما بين حيّنا والمدينة ولا نضع أرجلنا في الأحياء الفقيرة ولاسيما الحي الذي يسكنه الفقراء والأشرار بالفطرة والأولاد المشاغبون وإذا ما حدث وذهبنا إلى الأحياء الأخرى فيتم ذلك بواسطة السيارة وكأننا نقوم بجولة سياحية في بلد آخر، ولربما كان واقع الأمر كذلك.
ولكن ما أن بلغت سن العاشرة حتى اختمرت في ذهني مشاريع كثيرة. فقد قررت زيارة الأحياء الأخرى ولاسيما حي الفقراء وأن لا يكون ذلك بالسيارة، وأن أكون بمفردي، فلما جاء عيد ميلادي طلبت من أبي أن يشتري لي دراجة سباق صغيرة، فاشتراها لي معتقدا أنني سأمارس هوايتي في الميدان الرياضي الخاص بالحي.
كانت أجمل هدية اتسلمها من أبي. وكان يومها بداية ثورة في حياتي.
تجولت بها في الأحياء القريبة بضعة أيام ثم جاء يوم قررت فيه العبور إلى حي الفقراء في مغامرة لم يعد بعدها شيء في حياتي مثلما كان.
دخلت الحي كان كبيرا مترامي الأطراف معظم مبانيه من صفيح الزنك، شوارعه ترابية ضيقة تزدحم بالقمامة والذباب ومجموعات الأطفال. لم يكن أحد ممن في سني يمتلك مثل دراجتي الرائعة فكان ظهورها في حيهم أعجوبة ذلك الزمان.

- إلى هذا الحد ؟

- كان ثمنها يساوي أجر نصف سنة عمل على الأقل بالنسبة لمن يعمل من آبائهم. دخلت منطقة يتوسطها ميدان فسيح كان غاصا بالأولاد، فصاح الكثير منهم وجاءوا يعدون نحوي. أصابني الهلع وانطلقت اعدو بدراجتي فتبعني معظمهم وهم يصيحون بي ويرمونني بما تقع عليه أيديهم. واستمر هكذا الحال، ولكنني

أحسست بأنني كلما ابتعـدت عن المكان تناقص عدد المطاردين.
كنت التفت خلفي من حين إلى آخر فألمح دائما في مقدمتهم طفلة في مثل عمري وربما كانت تكبرني قليلا، وبعد أن قطعت مسافة أخـرى خيل إلي بأنه لم يعد يتبعني أحد، فهدأت من سرعتي ثم توقفت لألقي نظرة خلفي، كانت هي وحدها لا تزال تعدو خلفي.
أخذت أنظر إليها وهي منطلقة نحوي دون أن تغير سرعة عدوها رغم أنني كنت واقفا انتظرها. كانت قادمة في اتجاهي كالعاصفة أو ربما كانت تدفعها نحوي ما قد تسميه يد القدر. ثم صاحت قائلة :

ـ إنتظر أيها الغرير فلا أحد يريد بك سوءاً. فما بالك هكذا رعديدا ؟

وأحسست لحظتها بثقل الاهانة فألقيت بدراجتي على الأرض وأنا أصيح متهيئا للقتال هذه المرة :

ـ وهل يخشى مثلي مثلك أيتها المدعية.

توقفت بالقـرب مني حتى كاد أنفهـا يلامس أنفي. لم يبدُ عليهـا أنها قد أعـطت أدنى اهتـمام لاستعداداتي القتالية والروح العـدوانية التي كانت بادية على كل قسـمات وجهي. كان وجهها يحمل تباشير ابتسامة وهي تقول لي :

ـ لماذا تهرب منا ؟ كنا نريد فقط رؤية هذه الدراجة العجيبة عن قرب.

فقلت وشيء من التوتر لا يزال ظاهرا في كلماتي :

ـ ولكنكم صحتم بي ورجمتوني بالحجارة.

فقالت وهي تضع يدها لأول مرة على مقود الدراجة :

ـ لقـد فعلوا ذلـك لأنك هربت منهم. ولكن أنا لم أرمك بحجرة واحدة. ولو رميتك لأصبتك !

لقد كانت تتكلم بطريقة تختلف كثيرا عن طريقة ممن هم في سنها.

أخذت أنظر إليها مليا. كانت قمحية البشرة نحيفة أطول مني قامة. عيناها خضروان وشعرها قصير أسود نهايات أطرافه حمراء. قدماها حافيتان وفستانها ممزق يقصر عن ركبتيها متسخ إلى الحد الذي لم أستطع تمييز لونه. ولكنها كانت رائعة جذابة. تقع في أسر شخصيتها بعد تبادل بضعة كلمات معها.

أخذت تتفحص الدراجة بتمعن دون أن تعيرني انتباه. أما أنا فكنت أتفحصها هي، وبعد أن انتهت من ذلك التفتت إلي وهي تقول:

- هل لك أن تعلمني كيفية قيادتها؟

ووجدت نفسي مندفعا لتلبية الطلب دونما أدنى تردد.

ومنذ تلك اللحظة بدأت أتردد على الحي في معظم أيام الأسبوع للقاء «ساندرا» وصرت عضوا بارزا في شلتها. كان معظم آباء شلتي عاطلين عن العمل ولهذا فإن رفاقي بما فيهم «ساندرا» يذهبون كل يوم إلى قمامة الأحياء الغنية لجمع كل ما هو مفيد لهم، وشاركتهم في كل شيء وأدركت يومها أمورا كثيرة. وجاء يوم حملت فيه «ساندرا» معي إلى بيتنا وكان أبي مسافراً ولولاها لما تجرأت على فعل ذلك. وعندما وصلنا أمام الباب صاحت «ساندرا» قائلة:

- يا إلهي كل هذا البيت لكم وحدكم.

تركتها تتفحص الصالون الكبير بالطابق الأرضي وصعدت أخبر والدتي بأنني قد احضرت اليوم معي رفيقة لعبي وعندما رأتها والدتي من الشرفة صعقت لمظهرها وأقدامها العارية ولكنها قالت بعد أن تملتها لحظة:

- يا لها من رائعة هذه الشقية.

لقد كانت والدتي طيبة ولم تستطع أن تخفي فطرتها فأحبت «ساندرا» ولكنها لم تكن تشجعني على إحضار «ساندرا» إلى البيت. كان أبي لا يعلم بذلك، وكانت والدتي تهددني بإخباره إذا ما تماديت في علاقاتي مع شلة «ساندرا»، ولكن ذلك لم يعد مجديا فقد أضحى العالم بدون «ساندرا» لا يساوي شيئا، بل أخذت أشارك في كل نشاطات الشلة بما في ذلك سرقة بعض المأكولات من المحلات الكبيرة في الأيام التي تشح فيها القمامة من العطاء. كانت والدتي بحكم عاطفتها الدينية واستلطافها «لساندرا» تعطيني بعض الأشياء أحملها معي لها من وقت إلى آخر.

وفجأة توقف «بييترو» وهو يقول لتوفيق :

ـ دونك هذه !

كان «بييترو» يشير نحو فتاة تقف في حديقة «البار» باحثة عن مقعد لها.

كان ضوء واجهة «البار» منعكسا على الفتاة فتبدو طويلة رشيقة القامة نظيفة البشرة مشربة بحمرة، تظم شعرها الأبيض إلى الخلف في تسريحة غلامية. لم يعلق توفيق بشيء فأضاف «بييترو» :

ـ لا أظنها ستذهب إلى الجسر القديم هذه الليلة.

وهنا علق توفيق على الفور قائلا :

ـ إذن يالضيعة «كازانوفا»

عاد «بييترو» إلى حديثه السابق بعد أن أفرغ جرعة كبيرة في جوفه من الزجاجة ثم قال :

ـ كانت والدتي تقول لي «لماذا لا تذهب «ساندرا» إلى المدرسة ؟ إنها ذكية يا للخسارة. كان يحز في نفسها أن تكون «ساندرا» أمية. وتعرف أنني متعلق بها وأنني معاند، ولم يمض عام على هذا حتى اشتد المرض بوالدتي ولم يستطع الطب انقاذها فتوفيت

بعد فترة قصيرة، فُساءت أحوالي وكان ذلك بداية لتعاسة حقيقية، وبكتها «ساندرا» معي يومها كثيرا. وعلم أبي بعلاقتي مع «ساندرا» فضربني وشدد الرقابة علي حتى لا تستمر علاقتي بهذه الفتاة المجرمة الأمية، ويومها فقط أحسست أن الأمية صفة يجب أن تتخلص منها «ساندرا» ولم تنقطع علاقتي «بساندرا» بل الححت عليها أن تذهب إلى المدرسة ولم يكن ذلك ممكنا لأنها لو فعلت ذلك لماتت جوعا، ولكنها طلبت مني أن أعلمها ذلك وكنت سعيدا بهذا الطلب، ولكن يا له من برنامج تعس كان، فقد يحدث أن لا نلتقي إلا مرة واحدة خلال الأسبوع فتجلس «ساندرا» بصبر ليست معروفة به تقلدني فيما أكتبه ولكنها كانت خارقة الذكاء، وهنا قطع «بييترو» حديثه وصاح مناديا :

- مارتا. مارتا. إنني هنا.

كانت مارتا قد خرجت من الحانة وفي يدها زجاجتي نبيذ.

وردت عليه مارتا دون أن تصعد إليه قائلة :

- كل أفراد الشلة عطشى ينتظرونني هناك.

- ولكن أين ستنامون ؟

- في المكان المعتاد تحت أقواس متحف «غاليري دي لوفيسي»

- حسنا ربما لحقت بكم هناك.

ذهبت «مارتا» مسرعة وظل «بييترو» يلف سيجارته في صمت، ثم وضعها بين أصبعيه دون أن يشعلها وظل على تلك الحالة لحظة ليست قصيرة تناول بعدها جرعة من الزجاجة التي قاربت على الانتهاء ثم اشعل سيجارته وسحب نفسا طويلا لا يبدو أنه قد حصل منه على الاشباع الذي كان يبتغيه فقال :

- يا لها من سيجارة تعسة.

قال توفيق متجاوزا تعليق «بييترو» العرضي هذا :

ـ وماذا جرى بعد ذلك ؟

قال «بييترو» :

ـ لم يستمر برنامجنا التعليمي طويلا، فقد جاء يوم اتيت أبحث فيه عن «ساندرا» ولم أجدها مع الشلة، فأخبروني والحزن باد على وجوههم الصغيرة بأن «ساندرا» مريضة بمرض «البالودي» ولم تخرج منذ يومين من البيت، فذهبت إليها في زريبة الصفيح التي تسكنها أسرتها. وكنت متعودا على الذهاب هناك منذ بدء برنامجنا الدراسي، فوجدت والدتها باكية بجانبها وهي ممددة على حصيرة بدون غطاء فأخذت أنا أسأل «ساندرا» ببراءة عن كراستها وأقلامها فكانت هي تنظر إلي وفي عينيها ابتسامة ذابلة وشفتاها عاجزتان عن الحراك، فقالت لي والدتها :

ـ «إن «ساندرا» مريضة جداً ولا تستطيع القراءة يا ولدي».

فقلت :

ـ «عندما كانت والدتي مريضة كنا نحملهاإلى الأطباء. فلماذا لا تحملونها إلى المستشفى».

فقالت لي وعلى شفتيها ابتسامة لم أدرك معناها إلا بعد ذلك بسنوات كثيرة :

ـ «ليس لدينا ما ندفعه للطبيب».

لم أكن أدرك ان هذا المرض لم ينج منه أي طفل أصيب به في الحي. لأنهم ينقلونهم إلى المستشفى الحكومي البائس الذي لا يوجد فيه علاج لهذا المرض فيموتون بعد ذلك بقليل، بينما كان شفاؤها مضمونا لو عوجلت في مستشفى «الادفنتس» الأمريكي في مقابل خمسة آلاف دولار.

أخذني أبوها من يدي وخرج بي إلى الشارع ثم قال لي :

ـ «هيا لا تضيع يومك هكذا إذهب اِلعب مع بقية الأولاد ودع «ساندرا» تستريح»، فقلت أنا :

ـ «ولكن يجب أن تحملوها اليوم إلى الطبيب لتشفى سريعا» .

فقال لي ولا أدري لماذا قال لي ذلك :

ـ «لكي تشفى يلزمنا أن ندفع خمسة آلاف دولار» .

ـ فقلت له : «يجب أن تدفعوها لكي تشفى سريعا ولنلعب معا في الأسبوع القادم» .

ـ فقال وهو يدفعني بلطف نحو الأولاد المتجمعين في إحدى زوايا الشارع :

ـ «لا أظنكما ستلعبان معا في أي يوم آخر» . فغالبتني الدموع وهرعت نحو رفاقي الذين قالوا لي :

ـ «لا فائدة فإن كل من يصاب بهذا المرض يموت ما لم يعالجه أهله في المستشفى الأمريكي ويدفعون خمسة آلاف دولار» . بينما قال «سانتوسى» وهو أكبرنا سنا وأشجعنا وأطولنا قامة :

ـ «إن بيت أهلها بكل ما فيه من أثاث لا يساوي مائة دولار» .

إذن ماذا نفعل ؟ قال أحدهم للآخر. فوقف «سانتوس» بقامته الطويلة بيننا ـ كان قوي الشخصية وكان وسيما ـ ولا أظنه الا كان واقعا في حب «ساندرا» حتى قمة رأسه ولم تكن هي تبادله ذلك ـ وبدا لي ذلك الموقف غريبا من جانب «ساندرا» حينما قلبته على كل وجوهه بعد ذلك بسنوات طويلة عندما صيرتني الحياة رجلا. قال «سانتوس» بلهجة جادة :

ـ «لننزل إلى المدينة حيث توجد المصارف المتخمة بالدولارات. علينا أن نستولي منها على ما نريده» . ولم يعترض أحد من الأولاد ورغم أن المشروع لم يكن تنفيذه ممكنا من قبل أولئك الأطفال إلا أن الفكرة كانت جديرة بأن تنبت في رؤوس الكبار.

فقلت أنا ويالي من غرير كنت :

- «سأخبر أبي بالموضوع فلربما سيدفع المبلغ للمستشفى» .

فهرش «سانتوس» مقدمة رأسه ولا أظنه كان مقتنعا بسلامة الفكرة ثم قال :

- «حسنا . ترجع إلينا غدا لتخبرنا بما حصل» .

ركبت دراجتي وانطلقت بينما كان «سانتوس» يصيح خلفي ولا يزال صوته يطن في أذني حتى هذه اللحظة ورغم ضوضاء هذا المكان :

- «إياك أن تتأخر فغدا يجب أن نفصل في الأمر» . ولم أر «سانتوس» بعد ذلك اليوم أبدا . فقد دخل سجن الأحداث بعد يومين من ذلك .

عندما أخبرت أبي بذلك كان رد فعله عنيفاً ، فاعتدى علي بالضرب وطلب من الخدم احتجازي في البيت وبقيت على هذا الحال أكثر من أسبوع لا أخرج إلا إلى المدرسة محروسا بأحد الخدم في السيارة ثم أعود إلى البيت .

كان جواب أبي أنه ليس مسؤولا عن الفقر والموت في الأرجنتين .

إستطعت الهروب بعد أسبوعين والذهاب إلى الحي فالتقيت بالشلة ولم يعد «سانتوس» معهم فأخبروني بأن «ساندرا» قد حملها أبوها إلى المستشفى الحكومي وماتت في صبيحة اليوم الثاني . لا أظن أنه سيأتي في حياتي يوم آخر أكثر منه حزنا وتعاسة .

ومد «بييترو» يده لأول مرة إلى علبة سجائر توفيق ليتناول منها سيجارة . فقد أحس بأنه في حاجة ملحة لسيجارة ولا يستطيع الانتظار حتى يلف كالمعتاد سيجارته بنفسه .

سحب «بييترو» نفسا طويلا من سيجارته وظلت عيناه معلقتين في فراغ السماء بعيدا عن أحداث المشهد الدائر في «بياتزا سانت سبيرتو» ثم قال بصوت خيل لتوفيق أنه ينتمي إلى تلك الحقبة الزمنية من حياة «بييترو» وان كان قد خرج من حنجرته هذه الليلة :

ـ كانت «ساندرا» تحاول تعلم القراءة والكتابة من أجلي وكانت ستنتج قطعا في ذلك غير أن فسحة العمر التي أمامها كانت جداً قصيرة !

وأمسك «بييترو» عن الكلام هنيهة قصيرة من الوقت قبل أن يضيف دون أن تتغير نبرة صوته وتتحول نظراته عن قعر السماء :

ـ لقد كان لدي يقينا يومها ولعله لا يزال راسخا حتى الآن، وهو أنه لو كانت والدتي يومها لا تزال على قيد الحياة لما تركت «ساندرا» تموت في مقابل خمسة آلاف دولار.

وأحس توفيق أن «بييترو» بملاحظته هذه أراد أن يترفع بوالدته عن ناموس وقيّم حي أصحاب الملايين. أضاف «بييترو» وكأنه يحدث نفسه هذه المرة :

ـ لم يكن ثمن إنقاذ «ساندرا» يساوي في حقيقة الأمر تكاليف سهرة واحدة من التي كان يقيمها أبي لشركائه ضخام الجثة ذوي الرقاب الغليظة من رجال الأعمال الأمريكيين الذين يمضون الليل يحتسون الويسكي ويدخنون السيجار الهافاني ويقهقهون بأصوات نشازية في الصالون الكبير.

ألقى «بييترو» بعقب سيجارته وأخذ يتابعه بنظراته وهو ينحدر متدرجا فوق الأدراج التي خلت معظمها من الجالسين ثم عاد إلى حديثه.

ـ لقد ظللت بعد ذلك سجينا لهذا الحي أكثر من عشر

سنوات، ولكن ذلك كان بإرادتي. فلم أخرج من البيت إلا إلى المدرسة أو الجامعة وكنت قارئا نهما التهمت أطنانا كثيرة من الكتب. وكان أبي قد توفي في حادث تحطم طائرة أثناء إحدى رحلاته بين «بيونيس إيرس» و«بوسطن» بعد وفاة «ساندرا» بسنتين فقط. وعندما بلغت سن التاسعة عشرة كنت قد انهيت السنة الثانية بكلية الحقوق وضقت بكل شيء. وبدأت منظمة «التوباماروس» في الارغوي يذيع صيتها في أنحاء أمريكا اللاتينية. فكان هذا ما كنت أبحث عنه، كان هؤلاء يأخذون بالسلاح عنوة من أموال الأغنياء المتخمين ويعطونها للفقراء المعدمين. كانوا أولئك الرجال بالنسبة لي امتدادا لشلة أولاد حي الفقراء.

ثم أخذ «بييترو» يتفقد خرجه الذي كان يستند عليه وكان ذلك بمثابة إعلان عن قرب موعد مغادرته للمكان، فتوفيق يعرف بقية القصة وسبق ان روى له «بييترو» تفاصيل كل ما جرى أثناء سنوات انتمائه لمنظمة «التوباماروس» قال توفيق وهو يرى «بييترو» ينهض ويضع خرجه على كتفه بعجل فلا تزال تنتظره سيجارة مخدرة مع الشلة تحت أقواس «غاليري دي لوفيسي»:

ـ ألا تعتقد أن انتماءك كان انتقاما «لساندرا» فقط؟

قال «بييترو» وهو يحك ذقنه بإبهامه:

ـ لقد كان ذلك لأجل قناعات أكبر من هذا بكثير، «فساندرا» كفتاة لم تكن إلا كأي أنثى أخرى لا تستحق أن يضحي من أجلها رجل.

هبط «بييترو» الدرج مسرعا وخرجه يتأرجح فوق كتفيه، بينما ظل توفيق جالسا في مكانه وقد فوجيء بتعليق «بييترو» الأخير عن «ساندرا» وعدم استحقاقها لأي تضحية مثلها مثل أي أنثى أخرى.

وخيل لتوفيق أن مقاتل «التوباماروس» السابق لم يكن يقصد بحديثه هذا «ساندرا» ولكنه كان يعني بذلك «مارتا» وكأنه أراد أن يقول لتوفيق :

ـ حينما كنت غريرا رعديدا ممسوخ الشخصية اختارتني «ساندرا» عن كل رفاقها بما في ذلك «سانتوس» الفتى الشجاع الوسيم والذي يحبها كثيرا. فلا تعجب إن اختارت «مارتا» عني «استيف» الذي هو أقل أفراد المجموعة في كل شيء، فعلى هذا المنوال دأبت كل النساء بما في ذلك «ساندرا» ومنذ الأزل.

نهض توفيق متثاقلا. كانت كل الزجاجات فارغة ولم يعد هناك إلا نفر قليل من رواد الساحة، وأقفل كل من المقهى والبار أبوابهما وانطفأت أضوائهما واختفت معظم احداثيات المشهد وكفت الحركة على الساحة ـ المسرح ـ فسادها الصمت والعتمة.

الفصل التاسع

ـ ولكن أين الدراجة ؟

تساءل توفيق وهو يرى «باتريشيا» تعود راجلة على غير عادتها كل مساء .

قالت «باتريشيا» وهي تجلس إلى جانبه وابتسامتها العريضة هذه المرة يشوبها نوع من الاصطناع :

ـ لقد أعدتها نهائيا إلى دار التأجير.

ـ لماذا ؟

ردت «باتريشيا» دون أن تقطع ابتسامتها وشعرها يغمر وجه توفيق :

ـ لأنني سأسافر غدا .

كاد يقفز من مقعده وهو يبعد وجهه عنها متسائلا :

ـ ماذا تقولين ؟

ـ قلت لك إنني مسافرة غدا .

قال ويداه تبعدانها عنه ثم يهز كتفيها بشكل يفتقر قليلا إلى اللين :

ـ لابد أنك مجنونة حقا .

قالت «باتريشيا» وهي تعود للاقتراب بوجهها منه :

ـ لم يسبق لي أن نفيت إمكانية أن أكون كذلك .

ـ هذا أمر مؤكد وليس مجرد إمكانية .

طأطأت «باتريشيا» برأسها قليلا إلى أسفل بينما تراخت يدا توفيق حتى سقطت من على كتفيها فالتصقت جبهتيهما ببعضهما البعض وغمر شعر «باتريشيا» وجه توفيق وتحجرت عيناها في عينيه فلما أحس بأنه قد غرق تماما حتى القاع سمع صوت «باتريشيا» يأتي إليه من أعلى :

ـ طالما أنا مجنونة حقا، فلِم تنتظر مني تصرفات منطقية.

ظل هو صامتا وقاع عيني «باتريشيا» يزداد عمقا في عينيه وأحس بشلل دافىء يغزو أطرافه فانتفض مبتعدا بوجهه إلى الخلف قبل أن يغمره طوفان اللذة ثم قال بلهجة حاول أن تبدو خالية من التأثر :

ـ ليست لي رغبة في الحديث هنا. لنعد إلى البيت.

نهضا متجهين إلى البيت، ويد كل منهما تحيط بخصر الآخر.

كان الوقت أصيلا والجسر القديم في أكثر ساعاته ازدحاما وضجيجا بالحركة. ورآهما «بييترو» يمران بجانبه دون أن يحييانه فالتفت في اتجاه الشمس التي كان جزء منها يختفي خلف مرتفعات «فلورانس» الغربية. ربما كان مبعث دهشة «بييترو» هو رؤيته لهما يغادران الجسر القديم في تلك الساعة من الأصيل. ولعلها كانت تلك المرة الأولى التي يرى فيها «بييترو» توفيق و«باتريشيا» يغادران الجسر القديم قبل أن يشهدا ـ ككل يوم ـ اسدال ستارة الظلام تماما على آخر مشاهد الأصيل «الفلورانسي».

قال توفيق وهو يتكىء على حافة الطاولة في مواجهة «باتريشيا» التي كانت تجلس قبالته :

ـ لقد التقيت في روما ببائعات هوى أجنبيات جئن لقضاء الاجازة معتمدات في ذلك على ما يلتقينه من زبائن.

قالت «باتريشيا» وهي تنفجر ضاحكة :

ـ أنا إحداهـن !

قال توفيق بلهجة خالية من المزاح :

ـ من أدراني ؟

لم تتغير لهجة «باتريشيا» وهي ترد عليه :

ـ كيف لا تدري ؟ ألم أمضي كل هذه المدة معك بفضل نقودك .

وأحس توفيق بأن «باتريشيا» تسخر منه، فلم تكن محفظة نقـود توفيق صاحبة الفضل في شيء على «باتريشيا» طوال بقائهما معا . لم يرد توفيق بشيء بينما لكزته «باتريشيا» برجلها في ركبته :

ـ ماذا أصابك ؟ تكلم .

قال توفيق وهو يطفىء سيجارته بطريقة عصبية :

ـ هل تريدين أن أصدق أنك أخصائية نفسانية فعلا .

ـ وماذا عساي أن أكون ؟

ـ مضت عليك سنتين ـ حسبما تقولين ـ وأنت في رحلة حول العالم ولا تزال أمامك سنة أخرى . كل هذا بفضل ما ادخرتيه من مرتبك .

ـ ألديك شك في ذلك ؟

أخذ توفيق يهز رأسه دون أن يتكلم . قالت «باتريشيا» وهي تهزه من كتفه دون أن تتخطى عن لهجة المزاح :

ـ قل ما تبقى لديك من خرافات وأوهام .

ـ وهل أنت متأكدة بأن ما لدي هو مجرد أوهام .

ـ ليست بالنسبة لك على أية حال .

ثم انفجرت ضاحكة وهي تضيف :

ـ أتـذكر أنني أقمت في باريس ذات مرة لمدة شهر . وكنت

خلالها أتردد على مقهى جزائري فنشأت بيني وبين صاحبه صداقة فكنت أمكث في المقهى وقتا طويلا مصحوبة بأوراقي وآلة التصوير.
إلى أن جاء يوم سألني فيه صديقي بتودد :
ـ أنت يا آنسة «باتريشيا» تعملين لصالح الـ«س. س» أليس كذلك ؟
فقلت له :
ـ أنت العبقري الوحيد في باريس الذي استطاع التوصل إلى اكتشاف هذا السر.
قال توفيق ونبرات صوته تزداد غلظة :
ـ أحس بكل شياطين الأرض حاضرة في نفسي هذه الساعة، وأخشى أن ارتكب جريمة.
وهنا إعتدلت «باتريشيا» في جلستها وأحاطت بيديها وهي تنحني نحوه :
ـ لن يكون هذا في مصلحتك أيها الأحمق.
إستسلم توفيق لعبث أصابع «باتريشيا» في خصلات شعره ثم سمعها تغمغم في أذنه :
ـ أعرف أنني استفزيتك كثيراً. ولكنني أحب مشاكستك.
قال منتفضا وهو يحاول تخليص نفسه من يديها :
ـ لابد أن قرار سفرك غدا هو أيضا سببه حبك لمشاكستي.
ـ لم يكن هذا هو السبب، لأنني لم أكن أعرف أن سفري سيستفزك إلى هذا الحد.
شد توفيق بعضا من خصلات شعرها الطويل :
ـ وماذا كنت تتوقعين ؟
ظلت «باتريشيا» صامتة تستمع إلى كلمات توفيق وهي تتدفق في أذنها بعفوية حتى انتهى من كل الذي أراد أن يقوله لها.

قالت «بـاتريشيا» وهي تتراجع إلى الخلف وتقاطيع وجهها تعلوها ابتسامة ودمعة متحجرة بدأت تلمع في مآقيها :

ـ ليتني قررت السفر قبل الآن بوقت طويل. لكي لا أسمع منك كل هذا الذي لم يسبق لي أن سمعته من قبل.

قال وهو ينظر إلى أسفل :

ـ ألا تزالين مصرة على السفر ؟

هزت «بـاتـريشيا» رأسهـا بالإيجاب ولكنه لم يكن في تلك اللحظة ينظر إليها.

فلما طال انتظاره ولم يسمع إجابة «باتريشيا» رفع رأسه متسائلا :

ـ حسب علمي لست خرساء.

قالت «باتريشيا» وهي تضع يدها على جبهته :

ـ لقد أجبتك ولكنك لم ترني.

ـ إنني لا أرغب في حديث العيون معك.

أخـذت «بـاتريشيا» وجهه بين يديها وهي تضحك بصوت خال من رنة السرور المعتادة في ضحكاتها العالية الطويلة. ثم قالت وهي تضغط بأنفها على أنفه :

ـ لقد قلت لك : انني مسافرة وهذا موضوع لم يعد قابلا للنقاش.

ـ لماذا ؟

أجابت «باتريشيا» وهي تشيح بنظراتها عن نظراته هذه المرة :

ـ لأنه كذلك، ثم وضعت رأسها على كتفه وأحاطت رأسه بكلتا يديها وكأنها تريد أن تشل حركة جسمه مضيفة :

ـ لماذا تبحث دائما عن أدق تفاصيل الأمور ؟
ـ ألا ترين في سفرك موضوعا تهمني تفاصيله .
ـ خال من أية أهمية .
ـ أما بالنسبة إلي فهو مهم إلى الحد الذي أفكر فيه كيف استطيع أن امنعك من السفر.
ـ ولكنك لا تستطيع .
قال بلهجة بدت مشوبة بانكسار لم تتعودها «باتريشيا» منه في السابق :
ـ هذه حقيقة ، ولكنها تحزنني كثيرا .
فأخذت «باتريشيا» تضغط براحتي يديها على أذنيه :
ـ ألا تجد موضوعا آخر يكون سارا أكثر من هذا ؟
ـ ألا تجدينه كذلك .
قالت «باتريشيا» وفمها يغص في خصلات شعر رأسه الطويلة :
ـ لا .
ـ لقد حسبته يسرك كثيرا لأنك لا تخلين من سادية .
لم يكن رد فعل «باتريشيا» عنيفا كما توقعه بل قالت بلهجة تحمل تساؤلا أكثر من رد فعل :
ـ إذن هكذا أنا . في نظرك ؟
قال وهو يحاول أن يخلص رأسه من بين يديها :
ـ بل إنك تمارسينها في هذه اللحظة بالذات .
قالت «باتريشيا» بلهجة تقريرية :
ـ لقد التقينا صدفة في «فلورانس» وقضينا معا وقتا ممتعا ثم قررت متابعة سفري ، فلا أرى وجها للسادية في ذلك .

انفجر في وجهها على غير عادته :
ـ لماذا تسافرين ؟ لماذا ؟
أبعدت «باتريشيا» وجهها عنه وظلت تنظر إليه لحظة، ووجهها يحمل علامات صراع مشاعر كثيرة ثم قالت ووجنتاها تزدادان احمرارا وبلغتها الام ولأول مرة منذ أن تعارفا على الجسر القديم :
ـ لأنني عندما خرجت من بلدي كان لدي برنامج سنتين للطواف بالعالم، وأمامي على خريطة العالم مجموعة من البلدان التي يجب أن أزورها، وهذا ما أنا بصدده الآن.
قال بسخرية :
ـ بالطبع لم أكن أنا ضمن مواد برنامجك.
فهزت «باتريشيا» رأسها لتأكيد ما قاله وعلت وجهها ابتسامة لا تحمل علامات سرور وهي تقول :
ـ ومع ذلك فاللقاء معك سيظل أكثر أحداثه إثارة.
قال معترضا :
ـ إنتظري. فلا يزال أمامك عام آخر كما أنه يوجد أمامك رجال كثيرون.
إشتعل في عيني «باتريشيا» شيء من الغضب :
ـ إخرس أيها الأبله. لقد صرت فجأة محدثا سيئا.
أمسك توفيق عن الحديث وظل كلاهما مستغرقا في الآخر ولفهما صمت لم يشعر أي منهما بأنه كان طويلا.
قالت «باتريشيا» بصوت واهن :
ـ لقد طال الليل وليس من عادتك أن تظل دون عشاء حتى هذه الساعة.

وبدا الحزن واضحا في عيني توفيق وهو ينظر إليها دون أن يجيب بشيء.

قالت «باتريشيا» وجبهتها تلتصق بجبهته وعيناها تبتسمان لعينيه المترعتين حزنا :

ـ أنت إنسان مرح ! ألم تكن يوما كذلك ؟

قال وهو يتراجع بوجهه إلى الخلف :

ـ أرجوك. أوقفي هذه العقلانية المطلقة، لأن شكلها قبيح.

تحجرت فوق شفتي «باتريشيا» كلمة وظلت تنظر إلى توفيق لحظة حتى ظن أنها ستنفجر ضاحكة أو باكية غير أن «باتريشيا» قالت متسائلة بهدوء ودون أن تحيد بنظراتها عن توفيق :

ـ بأي لغة يفهم هذا الرجل الطفل ؟

ـ لابد أنك مسرورة الآن لأنك جعلتني أتصرف كطفل. أليس كذلك ؟

لاحت على محيا «باتريشيا» ابتسامة باهتة بينما انزلقت ببطء دمعتان على وجنتيها وظلت تحدق إليه ولازمت صمتها السابق.

قال توفيق الذي لم يعد يطيق صمت «باتريشيا» :

ـ لعهدي بك ثرثارة.

هزت «باتريشيا» رأسها بعلامة النفي دون أن تقطع صمتها أو تغير من وضعها السابق، ولأول مرة منذ عرف «باتريشيا» وجد نفسه يندفع نحوها ويدفن رأسه في خصلات شعرها، وأحست «باتريشيا» وهي تسمع تلاحق أنفاسه أنه يستجديها ولكنه يرفض التعبير عن ذلك بالكلمات. أحاطت «باتريشيا» رأسه بذراعيها وهي تقول :

ـ أعرف أن رأسك متعب. لقد جعلتك تثرثر كثيرا هذا المساء.

فانفجر :

ـ أخشى أن أقتلك هذه الليلة بسبب عدوانية ردود أفعالك الباردة هذه .

قالت «باتريشيا» بعد لحظة أخرى من الصمت :

ـ هب أنني قررت البقاء معك لمدة أسبوع آخر. هل ستكون لديك نفس هذه الرغبة في قتلي ليلة سفري .

وهنا صرخ توفيق في وجهها بصوت لا يخلو من حدة :

ـ إخرسي! لا تقايضيني على عواطفي ! إنك تنظرين إلى كل الأمور والقيم من زاوية الكم فقط . إنني أرفض إتمام هذه الصفقة .

ضمته «باتريشيا» إليها بقوة رغم مقاومته للفكاك منها . وتأكد لحظتها أن «باتريشيا» أقوى منه . ومرت لحظة أخرى لكي يتراخى ساعدا «باتريشيا» وتخور قواه هو فيقع رأسه فوق كتف «باتريشيا» وسمعها تقول له بصوت مبحوح يدل أغلب الظن على أنها كانت تبكي :

ـ حسنا . سأبقى معك . أيها الأرعن . لأرى ماذا ستصبح .

لا يبدو على توفيق أنه صدق ما سمعه واتهم نفسه باساءة فهم هذه الجملة الانجليزية التي تفوهت بها «باتريشيا» واكتشف توفيق أن هذه هي الليلة الوحيدة التي فضلت فيها «باتريشيا» الحديث بلغتها الأم .

تساءل بعد لحظة تردد :

ـ انني لم أفهم ما قلتيه .

وهنا انفجرت «باتريشيا» ضاحكة وهي تهزه بلطف :

ـ كنت على يقين بأنك لم تفهمها . ثم كررت جملتها مرة أخرى . فتساءل توفيق :

ـ ولكن . تبقين إلى متى ؟

أجابت «باتريشيا» باسمة :
- ها هو أنت الذي يبحث عن تحديد أجل لبقائي معك.
- لقد طرحت سؤالي لأنني أعرف أنه هناك أجلا حددتيه مسبقا في ذهنك هذا الذي يعمل بشكل آلي.
قالت «باتريشيا» وهي تجره نحو الكرسي الذي تجلس عليه هي :
- سأبقى معك إلى اليوم الذي تقول لي فيه أنك لم تعد تطيق وجودي.
- حقا ؟
هزت «باتريشيا» رأسها بالإيجاب وابتسامة عريضة تلوح بوادرها فوق اخضرار حدقتي عينيها الواسعتين. قال توفيق باسما وأسارير وجهه تنفتح لأول مرة منذ بداية حديثهما :
- لن تسمعي مني هذا أبدا أيتها البلهاء.
وانفجرا ضاحكين ثم نهضت «باتريشيا» وأخذت تجرجره خلفها مقهقهة وهي تقول :
- قم بنا نبحث عن شيء نأكله. كدنا نموت جوعا بسبب حماقاتنا القلبية.
عندما وجد توفيق نفسه أمام باب المطبخ توقف ثم دفع «باتريشيا» بلطف نحو الداخل :
- أنت التي تطبخين العشاء. وهذا أمر مني.
توقفت «باتريشيا» في وسط الطريق :
- إسمع. إنني أرفض هذه العنتريات الشرقية.
- يوم أن تصبحي أما لأربعة أطفال ستقبلين بها دونما أدنى اعتراض.
- في هذه الحالة لن أضع طفلا واحدا.

ـ الزمن كفيل بأن يجعلك تحنين إلى طفل.
ـ سأبحث عن طفل أتبناه.
قال توفيق معترضاً ويده تلوح بالقرب من وجه «باتريشيا» :
ـ لن أقبل بطفل في بيتي غير طفل من صلبي.
وهنا انفجرت «باتريشيا» ضاحكة وهي تقفز في الهواء :
ـ دعنا من هذه المسرحية لنفعل شيئا آخر.
أحس بها توفيق بين ساعديه أخف من أي مرة سابقة احتوى فيها «باتريشيا» بين ذراعيه. في هذه الليلة نسي كل من توفيق و«باتريشيا» انهما كانا في السابق ممثلين مسرحيين فانطلقا في حوار شديد الحبكة رغم أنه لم تكن فيه جملة واحدة تم اعدادها مسبقا. وليلتها أيضا ابتعد كل منهما عن الواقع أكثر من أي ليلة سابقة ابتعدا فيها عنه...

عندما داعب وجه توفيق شعاع شمس الضحى القادم عبر النافذة طوح بيده لتلتقي بوسادة خالية كانت خصلات شعر «باتريشيا» مبتورة فوقها طوال الليلة الماضية. فتح توفيق عينيه ليجد مكان «باتريشيا» خاليا بينما رأى على طاولة السرير الصغيرة ورقة متوسطة الحجم شبيهة بورقة مذكرة «باتريشيا» التي تحملها في حقيبتها دائما. فمد يده وفتحها. خط «باتريشيا» جزء من شخصيتها فمن يراه مرة لا ينساه بعد ذلك أبدا.
ـ «اعذرني فلم أوقظك. لأن موعد قطاري كان في الساعة السابعة وكنت أعرف أن هذه الساعة من الصباح تعد وقتا مبكرا جدا بالنسبة لك. ولكنني مع ذلك تركت على وجهك قبلات كثيرة...

إنني أكاد أسمع ما تتفوه به الآن أثناء قراءتك لهذه السطور وأرى تعابير وجهك وقسماته. ولكنني لا استطيع ان احصي مقدار

التساؤلات التي ستمر بذهنك ولا الأوهام التي ستتراءى لك هذا الصباح.

ورغم هذا. ها قد سافرت ولم أقايضك على عواطفك».

«باتريشيا براون»

سقطت الورقة تلقائيا من يده على وسادة «باتريشيا» وظل لحظة ساهما ينظر إلى مكان «باتريشيا» الخالي. ولربما تذكر في تلك اللحظة أنه كان قد اكتشف وجود «باتريشيا» بجانبه على نفس السرير ذات صباح وها هو يكتشف اختفاءها من على ذات السرير في صباح آخر. لم تسعفه بديهيته في هذه اللحظة للقيام بأي رد فعل أو تصرف فترك رأسه يتراخى حتى لامسته الوسادة فتعلقت عيناه بسقف الحجرة وظل حاجباه مشدودين إلى أعلى مدة من الوقت ثم شعر فجأة بأن غلالة رقيقة من الماء حالت بين عينيه والسق فاغمضهما وتزاحمت في رأسه تساؤلات يعرف أن ليست لها إجابة وفقدت كثير من الأشياء ما كانت تحمله من معاني.

الفصل العاشر

لم يسبق لتوفيق أن بحث عن «بييترو» بقدر ما بحث عنه بعد ظهر هذا اليوم، فقد لف «فلورانس» وسطها وأطرافها باحثا في كل الأماكن التي يرتادها «بييترو» أروقة «غاليري لوفيسي» الظليلة، ساحة «بياتزادي لاسنيوريا»، كنيسة «الدومو» «بياتزاسانت سبيرتو»، حديقة الشعب، ولكن دون جدوى، فآخر مرة رآه فيها من يعرفونه كانت الليلة الماضية قبل منتصف الليل.

رجع توفيق إلى الجسر القديم آملا في عودة «بييترو» مع حلول المساء، فيحدث أحيانا أن يختفي «بييترو» طوال اليوم ولا يظهر على الجسر إلا عند الغسق، وشد انتباه توفيق سقوط شيء محدثا ضجة لدى ارتطامه بالأرض،فالتفت إلى يساره فوجد بالقرب منه شابا فرغ لتوه من القاء خرجه ووقف يجيل نظراته في ما حوله.

فبدا له من تطلعه واهتمامه انه غريب عن المكان. وبعد لحظات قصيرة اكتشف خلالها بنظراته كل معالم الجسر. جلس قبالة توفيق دون أن ينظر إليه. ولكنه بعد أن جذب خرجه واستند عليه بمرفقه قال لتوفيق بلغة عربية :

ـ ألديك سيجارة ؟

ناوله توفيق سيجارة في صمت ثم أتبعها بعلبة الكبريت غير أن الشاب أبعد يد توفيق الممتدة إليه بحركة من يده ليفهمه أن لديه ما يشعل به، ورغم أن هذا التصرف لم يعجب توفيق إلا أنه لم يأت

بأي رد فعل معاكس واكتفى بالتمعن في هيئة جليسه الذي أشعل سيجارته وسحب منها انفاسا متتالية ثم ترك جسمه يتراخى حتى استراح مرفقاه تماما غائصين بين محتويات الخرج الذي يستند إليه.

بدا في عز سنّي شبابه بين العشرين والثلاثين. طويل القامة لوحت الشمس بشرته البيضاء. شعر لحيته لم يحلق منذ عدة أيام. عيناه الشهلاوان يكشفان عن روح هجومية تنبيء عنها أيضا تقاطيع وجهه المتقلصة، فبدا لتوفيق إنسانا ديناميكيا متحفزا عدوانيا بطبيعته أو بحكم تجربة قاسية غيرت من ردود أفعاله وتصرفاته وحفرت ببصماتها في مجرى حياته، ولربما بدا للكثيرين شخصية متميزة عن كل رواد الجسر تجمع بين خشونة فرسان الصحراء الاسطوريين وسحر نبلاء القرن الثامن عشر.

أغمض الشاب عينيه وكفت أطرافه عن الحركة وظنه توفيق قد نام واستسلمت حيويته أمام التعب ولكنه فجأة فتح عينيه واستدار نحو توفيق فسأله قائلا :

- هل أنت عربي ؟

أجاب الشاب بلهجة لا تخلو من سخرية :

- كنت أظن أنك ستسألني عن اسم قبيلتي.

لمس توفيق في لهجة الشاب الساخرة جدية لاذعة فأراد مجاراته بنفس اللهجة فسأله :

- ومن أي قبيلة أنت إذن ؟

فرد الشاب دون أن ينظر إلى توفيق :

- من قبيلة بني ماعز

لم يبدُ على توفيق أنه ضحك أو ابتسم لدى سماعه لهذا كما أن الشاب لم يظهر ما يدعو للإعتقاد بأنه كان يقصد إضحاك توفيق أو إشاعة روح المرح في مجلسهما.

قال الشاب :
ـ ومن أي فصيلة أنت ؟ !
ـ من بني غنم !
قال الشاب وهو يزفر ويقذف بعقب السيجارة إلى الرصيف :
ـ لابأس إذن فكلانا يسوقه راع إلى المرعى. يهش عليه بعصاه نهارا ويحشره في الزريبة ليلا.
ـ ولكنهم ليسوا رعاة فقط، فهم أيضا جزارون وسالخو جلود ؛ وقطعانهم من أكثر فصائل الحيوانات خنوعا تمد رقابها للموسى طواعية.
قال الشاب ساخرا :
ـ إذن أبشر فكل عناصر الفناء متوفرة فينا.
ـ هذا أمر لا أخالك تجهله.
ـ لا أجهله ولكنني لم أسلم به بعد.
ـ ولكنك ربما تكون في طريقك للتسليم به.
فهز الشاب رأسه دون أن يعلق بشيء.
أحس توفيق أن الاجابة بنعم واردة في ذهن جليسه مثلما هي واردة في ذهنه هو، ولكنها تواجه مقاومة عنيفة في داخله. أما الإجابة بلا فهي الأقرب إلى لسانه وقلبه ولكنها بعيدة عن عقله. فوجد في الصمت حلا لهذا المأزق. ولم يحاول توفيق من جانبه أن يسد هذا المهرب في وجه جليسه لاحساسه هو الآخر بأنه ربما كان سيختار نفس المخرج لو كان السؤال مطروحا عليه، فترك الصمت يمتد بينهما ليقول ما لايراد قوله باللسان. بعد لحظة استدار توفيق نحو الشاب متسائلا :

ـ ما اسمك ؟
فرد الشاب دون أن تطوف بشفتيه شبح ابتسامة :
ـ الخرفان والماعز ليس لها أسماء إلا المدلل منها وأنا لست كذلك.
قال توفيق محاولا اِستدراج حوارهما نحو أرضية أكثر واقعية :
ـ أنا أيضا لست مدللا ومع ذلك إسمي توفيق.
قال الشاب متسائلا بسخرية :
ـ في أي شيء وُفقت تُراك ؟
يبدو أن توفيق وجد فرصة ليفضفض عن نفسه المهمومة منذ صباح هذا اليوم الذي اكتشف فيه اختفاء «باتريشيا» ولم يعثر فيه على أثر «لبييترو» في طول «فلورانس» وعرضها فقال مجيبا على سؤال محدثه دون تكلف :
ـ لقد وفقت في اختيار طريق لحياتي الخاصة، لم أضيع الوقت في الانتظار هربت بجلدي مبكرا لإيجاد حلول لمشاكلي الخاصة بعد أن وجدت أن لا سبيل للمشاركة في إيجاد حلول لمشاكل المجتمع.
ـ وهل وجدت حلولا لكل مشاكلك الشخصية.
ـ لعدد كبير منها ما كنت لأجد له حلولا لو بقيت هناك.
سحب الشاب سيجارة من علبة توفيق دون تكلف وأشعلها وظل توفيق ينتظر رد فعل الشاب دون جدوى، فقد استمر هذا الأخير يدخن بشراهة وكأنه لم يكن بجانبه شخص يحدثه.
كان يجيل نظراته في ما حوله دون اكتراث وكأنه مأخوذ بمشاهد الحركة التي تجري على الجسر، بينما بدا لتوفيق في حقيقة الأمر شخصا حذرا ونظراته ليست تائهة في الفراغ كما يبدو ظاهر الحال.
قال توفيق وكأنه يريد أن يشد انتباه الشاب إليه :

ـ كنت صحفيا.

فقال الشاب متسائلا دون أن تحيد نظراته عن طرف الجسر الشرقي المؤدي إلى مركز المدينة :

ـ والآن ؟

ـ تركت هذا منذ سنوات.

ـ حسنا فعلت !

ـ قبلت الإرتـزاق. ولكن للأسف حتى تقاليد الارتزاق لا تحترمها انظمة بلاد العرب في تعاملها مع مرتزقتها.

قال الشاب بلهجة تطمين ساخرة :

ـ لن تستمر الأمور على هذه الوتيرة وقتا طويلا. عما قريب ستنتقـل ملكية المنـطقـة إلى يد مالـك واحد وتصبح الأمور أكثر استقرارا. وظل توفيق ساهما لا يعلق على حديث جليسه ولم يبد هذا الأخير متشوقا بدوره إلى سماع رد توفيق.

فاستمـــر كلاهمـا ممسكـا بطرف الصمت ويشـده نحـوه. وانفرجت ستارة الضباب أمام أفكار توفيق فتراءى له خلفها بلاطا فخـما سقوفه من الذهب وجدرانه من الفضة وأرضيته من الرخام السماوي يتصدره سرادق مكسو بالقطائف الحمراء وعلى قمته كرسي العرش الامبراطوري يتبوؤه امبراطور، صولجانه يخطف الأبصار. تزين تاجـه الذهبي مختلف أنواع الدرر في أعلاها جميعا تنتصب نجمة داود سداسية لامعة يغشي بريقها النظر. في الفناء. الخارجي البعيد خلف الحراس والخدم والأبواب تنتظر وفود مشائخ العرب من رعايا الامبراطور قادمين على كل ضامر ومن كل فج عميق يجددون البيعـة ويرفعـون الشكـاوي فهذا شيخ في قفطانه الأبيض وحلته السوداء ينزع خنجره المرصع بالأحجار الكريمة ويعطيه للحراس ثم يتقدم جاثيا عند قدمي الامبراطور ضارعا شاكيا له طغيان شيخ

آخـر تجاوز نفـوذه حدود قبيلتـه. بينما وقف على يسار الامبراطور ترجمـان لهجـات عرب المغـرب وعـلى يمينه ترجمان لهجات عرب المشرق. يتقـدم بعـد ذلك شاعر يرتدي حلة مخططة وحزاماً من الحرير يضع الخدم على رأسه طاقية صغيرة سوداء قبل مثوله أمام يدي الامـبراطور. ويهرع ترجمان ثالث ليترجم شعر الشاعر الذي يلقيه بلغـة منقرضة لم يعد يتكلمها أحد غير أفراد عشيرته. يقف الشاعر في حضرة الامبراطور قائلا :

أتـانـي أبـيـت اللعـن أنـك لمتـنـي

وتلـك التـي أهتـم منـهـا وأنـصـب !

فبـت كـان العائـدات . . .

وهنا يشير الامبراطور بحركة خفيفة من يده فيتوقف الشاعر.

فقد فهم الامبراطور مقاصد الشاعر ومراميه وأعفاه من الاستزادة.

فلا تزال أعـداد كبـيرة من الـوفـود المبـايعـة والشاكية تنتظر بشعرائها وهداياها، ووقت الامبراطور ضيق وتفاهاتهم كثيرة. يصيح الحاجب واصفا هدايا الوفود وهي تمر أمامه على شاشة اليكترونية. هذا صقر حجازي - يا جلالة الامبراطور - ريشه مزركش ومنقاره معقوف يخرجون به للصيد وعمره شهر واحد. وهذا هدهد يمني لعله من نفس الفصيلة التي اظلت بأجنحتها مليكنا سليمان العظيم في وسط هجير الصحراء. أما تلك فهي نعامة من منطقة دارفور. وهذا الحصان الأبيض المصبوغ ذيله وناصيته بالحناء فمن منطقة أغادير المغـربية، وأمـا هذه الجارية المطمومة الشعر العراقية الكفل فهي هدية لجلالته من أرض الكوفة. وهذه القطيفة السوداء من الحرير الدمشقي المنقوشة عليها نجمة داود بخيوط من ذهب هي رمز ما يكنه أهل الشام لجلالته من مودة. وهذه مومياء لملكة محنطة في

نعشها الذهبي مكتوب عليه بماء الفضة حضارة سبعة آلاف سنة فقد حملها لجلالته وفد تجديد البيعة والعهد من بلاد النيل . أما تلك المهرة الشهباء التي لم تبلغ عامها الأول بعد فهي رمز تعلق سكان برقة باعطافكم الكريمة . وهذا الشاب الأمرد الرقيق الاهاب فقد بعث به أهل مدينة تونس لينال شرف الانضمام إلى أطقم طهاة بلاطكم المقدس . وهذا برنس قلائده من الفضة وأزراره من الذهب هو عربون الولاء الدائم من رعايا جلالتكم بوهران وتعلقهم باعتابكم العبرية . وبحركة من يد الامبراطور يتوقف العرض يهرول الخدم نحو قاعة الوفود فينهض المشائخ والشعراء مستبشرين ضاحكين راطنين في ما بينهم لغة عبرية طليقة . وقد فهم الجميع أن الامبراطور طلب من رجال بلاطه أن يحسنوا وفادة هؤلاء «القويم» .

وفجأة ظهرت دورية الشرطة على الجسر وهي تقوم بجولتها الاعتيادية في مساء كل يوم حيث يقوم أفرادها بتفحص وجوه الجالسين على حافتي الجسر فينتقون بعضا منهم ليسألوهم عن أوراق هويتهم . وتوقف أفراد الدورية أمام شاب رث المظهر جالس تحت أحد أقواس الجسر الجنوبية وسأله أحدهم عن أوراق هويته . فأخرج هذا بطاقته قائلاً بنرفزة :

ـ أنتونيو. إيطالي . من مدينة كاتانيا . مات جدي في الحرب بعد أن ترك في بطن زوجته المسكينة والد هذا الصعلوك الذي أمامك .

واستمر الشرطي يستجوبه كرد فعل على سخريته به :

ـ ماذا جئت تفعل هنا ؟

قال انتونيو :

ـ أتيت سائحا كعامة الناس هنا . ألديك اعتراض على هذا ؟

فرد الشرطي وهو يعيد له بطاقته وينظر إلى قدميه الحافيتين :

ـ سائحا حافي القدمين ! .
قال أنتونيو وهو ينفجر ضاحكا :
ـ إن لم يعجبك هذا. فاشتر لي حذاء.
أسرع الشرطي خلف رفاقه خارجا من هذا الموقف الساخر.
قال الشاب إلى توفيق وهو يفتح خرجه للبحث عن جواز سفره :
ـ إنني متأكد بأنهم سينتقوننا دون سوانا.
ـ لقـــد ملوا رؤية وجـهي يوميا على هذا الجسر ولا أظنهم سيسألونني عن شيء.
ـ إذن. اليوم دوري أنا.
إقترب منهما أحد أفراد الشرطة وألقى نظرة فاحصة على كل منهما قال بعدها للشاب :
ـ أوراق هويتك من فضلك.
ناوله الشاب على الفور جواز سفره، فأخذ الشرطي يقلب أوراقه لحظة ثم سأله :
ـ ماذا جئت تفعل في «فلورانس» ؟
فهز الشاب كتفيه دلالة على عدم فهمه للإيطالية، وعندما أحس أن توفيق يتأهب للقيام بدور المترجم استدار الشاب نحوه ورمقه بنظرة فهم منها هذا الأخير بأنه لا ينبغي عليه أن يتدخل في هذا الموضوع.
ظل الشرطي يكرر نفس السؤال والشاب يرد عليه : ما إذا كان يتكلم الانجليزية.
وفي هذه اللحظة وصل قائد الوحدة الذي تناول بدوره جواز السفر وقلب أوراقه كما فعل سابقه ثم سأل الشاب بلغة إنجليزية ركيكة حول ماذا جاء يفعل في «فلورانس» ؟

فرد الشاب :

ـ لقد أتيت للسياحة.

ـ ولماذا «فلورانس» بالذات ؟

فرد الشاب بلغة إنجليزية أكثر سلامة من لغة سائله :

ـ أليست «فلورانس» هي إحدى أجمل مدن إيطاليا ومدينة النهضة وميشيل أنجلو وجاليليو. وعاصمة إقليم تسكانا. أترى بعد كل هذا أنه ينقصني الأسباب لزيارتها.

انتفخت أوداج الضابط فخرا وهو يتابع حديث الشاب الهادىء السلس فأقفل جواز السفر وناوله إياه وهو يهز رأسه بارتياح.

لم يستطع توفيق أن يتحقق من هوية الجواز الذي يحمله الشاب فقط تناوله هذا الأخير من يد الشرطي وأعاده بسرعة إلى حقيبته الصغيرة.

تناول الشاب سيجارة أخرى من علبة توفيق وظل يدخن في صمت دون أن يعلق بشيء عما جرى قبل قليل.

قال توفيق ساخرا :

ـ ألا تعرف شيئا آخر غير الصمت.

قال الشاب وهو يلتفت نحو توفيق بصوت كان مستغرقا في تأمل بعيد عما يجري حوله :

ـ ماذا تريدني أن أفعل ؟

ـ حدثني عن نفسك.

ـ وهل هذا مهم ؟

فقال توفيق بلهجة لم يستطع معها إخفاء غضبه :

ـ وهل كان حقا مهما أن أروي لك كل شيء عن نفسي.

ـ ولكنك قمت بذلك طواعية ولم أطلبه منك. ولربما كان في ذلك راحة لك.

ـ لقد كنت أرغب فقط في أن تجادلني في أي أمر بدلا من هذا الصمت.

قال الشاب بسخرية :

ـ قلت انك قد نجحت في حل مشاكلك الشخصية. ولكنني أراك لا تزال تعاني من هذه المشكلة العربية المزمنة.

ـ فقط عندما ألتقي بعربي.

ـ بإمكانك أن تتحاشى اللقاء بهم.

ـ إلتقيتهم حيثما وضعت قدمي في هذا العالم

قال الشاب معلقاً دون أن ينظر إلى توفيق :

ـ يا لعددهم الهائل دون جدوى.

قال توفيق ولعله وجد أخيرا قضية يجادل فيها جليسه بصرف النظر عن فائدة ذلك :

ـ لا علاقة بين العددية والفاعلية.

ـ إنني لم أذهب إلى الحد الذي ذهبت إليه أنت. فكل ما أردت قوله، هو أن الشعب الكثير العدد يتهيب الآخرون تفوقه العددي فيفكرون أكثر من مرة على الأقل قبل احتلال أرضه. وهذا لا ينطبق على العرب، أليس كذلك ؟

فهز توفيق رأسه دون أن يقاطع محدثه. بينما أضاف هذا الأخير :

ـ والشعب الكثير العدد يخشى عادة حكامه انفجار غضبه لأنه مهما قتلت أجهزتهم منه لا يحس بفداحة ما يدفعه من ثمن في صراعه معهم. وهؤلاء لم يدللو على هذا ولو مرة واحدة عبر تاريخهم الطويل.

ظل توفيق منصتا لهذا البركان المتفجر بمشاغر التمرد والقهر والرفض والانفة والمهانة وهو يلقي بحمم هائلة ملتهبة حارقة من

فوق جبل غاباته صائفة وسفوحه شديدة الانحدار.

وخيل لتوفيق أن الشاب سيستمر في حديثه الناري هذا. لأنه لا يعوزه ما يقوله في هذا الموضوع كما أن توفيق بدا وكأنه متهم يؤيد بصمته كل ما ينسب إليه من تهم، غير أن الشاب على عكس ما توقع توفيق توقف عند هذا الحد.

وأحس توفيق بأن حديث الشاب قد ألقى به في عمق بحر من اليأس ثم جاء صمته وترفعه عن أية إضافة بمثابة الاعلان عن عدم وجود أي شاطيء لهذا البحر.

قال توفيق ولعلها كانت محاولة لانقاذ نفسه من الغرق :

ـ إنك تبالغ بعض الشيء يا صديقي عندما لا تستثني أية فترة من تاريخهم الطويل.

قال الشاب بسخرية :

ـ أعرف أنك ككثيرين غيرك لا تجد ما يمكن الاعتزاز به في تاريخهم سوى تلك الفترة التي انحازت فيها السماء إلى جانبهم.

وطفق توفيق يضحك بينما أضاف الشاب بلهجة أبعد ما تكون عن المزاح :

ـ الأولى بكم عدم الوقوف عند تلك الفترة لأنها في حقيقة الأمر ليست إلا برهانا على أنهم لا يقدرون على تغيير مجرى التاريخ ما لم تهتم السماء بشؤونهم !

قال توفيق ساخرا :

ـ ما أظن أن السماء لديها كالسابق الوقت الكافي للاهتمام بشؤونهم دون غيرهم من البشر.

ـ إذا كان محمد آخر نبي مرسل والقرآن آخر كتاب منزل فما

عساهم ينتظرون بعد ذلك ؟
هز توفيق كتفيه وزم شفتيه دون أن يقول شيئا فلم يكن سؤال جليسه يبحث عن إجابة ولم يكن موجها إليه .
بدا الليل ينصرم ولم يظهر «بييترو» ولم يمر كعادته «كازانوفا» .
أخذ الشاب يجيل نظراته فيما حوله وبدأ رواد الجسر يتناقص عددهم ولم تتبق سوى ثلاث مجموعات تجلس أكثرها عددا في طرف الشمال الغربي من الجسر، والثانية تجلس في الجهة المقابلة لها تحت «فانوس» الكهرباء الكبير وثالثتها وأقلها عددا تجلس في الطرف الجنوبي الشرقي أكثر أماكن الجسر عتمة نظراً لوجود الجدار الفاصل بين الجسر والمحلات التجارية والذي يحجب ضوء الفانوس عن هذا الجزء من الجسر.
كان يصدر عن أفراد المجموعة الجالسة في العتمة قهقهات عالية وعبارات باللغة الألمانية ورائحة تبغ مخدر اختلطت بنسمات رطبة تنشط فوق الجسر عادة في هذه الساعة المتأخرة من الليل . تمر بين الفينة والأخرى مجموعة صغيرة من ثلاثة أو أربعة أشخاص يلقون نظرة على المكان ثم يواصلون سيرهم نحو ساحة «بياتزا دي سنيوريه» فهي المكان الذي يفضله الكثير من السواح في الساعات الأخيرة من الليل . بينما وقف في نهاية شارع الجسر شرطيان يقومان بمهمة حراسة متاجر المجوهرات الواقعة في نفس الشارع .
ألقى الشاب نظرة على خرجه ثم قال وهو يتهيأ للوقوف :
ـ من يطيل البقاء على هذا الجسر في هذه الساعة من الليل ينبغي عليه أن يكون شاعرا وأنا لست كذلك.
قال توفيق محاولا ابقاءه بعض الوقت :
ـ لا يزال الوقت مبكرا .

ـ ليس بالنسبة لي .
نهض توفيق بدوره عندما رأى الشاب ينهض ثم قال :
ـ إنها ليلة صيفية وانت في إجازة فلا أعرف لماذا أنت على هذا القدر من العجلة .
قال الشاب وهو لا ينظر إلى توفيق بل إلى الجهة التي يبدو أنه يريد الذهاب إليها :
ـ لا تزال أمامي مسافة طويلة من السير.
ـ أين تقطن ؟
ـ في فلورانس .
ـ أقصد أين تنام ؟
ـ في فلورانس .
قال توفيق وهو يسير بجانب الشاب :
ـ ولكنك لم تقل لي عن اسمك .
فتوقف الشاب عن السير وقال وهو يستدير نحو توفيق :
ـ بإمكانك أن تناديني بأحد الأسماء التي تحمل صفات عربية .
ـ ولكنها كثيرة .
ـ أبـدا فهي لا تتعـدى الخمسة أسماء التالية : مستكين، مقهور، مطيع ، جائع ، قنوع .
وطفق توفيق يضحـك بينـما استدار الشاب مستأنفا سيره.
وتبعه توفيق وهو يقول له في محاولة منه لابقائه معه بعض الوقت :
ـ تعال معي إنني أدعوك لتناول شيء في هذا البار.
فرد الشاب دون أن يخفف من خطوه :
ـ لدي موعد حان وقته ولا أستطيع أن أخلفه .

قال توفيق وهو يقصر خطواته :

- إذن لنؤجل الدعوة إلى غد. ستجدني هنا على تمام الخامسة مساء.

ستأتي أليس كذلك ؟

ولم يعرف توفيق ما إذا كان الشاب لم يسمعه أو أنه فضل الا يلتزم معه بموعد وفي كلتا الحالتين لم يفضل توفيق أن يكرر نداءه بل وقف في مكانه ينظر إلى الشاب الذي بدأ يختفي هابطا منحدرا شارع الجسر القديم ثم انعطف إلى اليسار مع شارع «قْيادي باردي» الذي يمتد بمحاذاة نهر «ارنو» صاعدا نحو مرتفعات «فلورانس الغربية» التي يوجد على قمتها مخيم «ميشيل انجلو» العالمي للشباب وعندما اختفى الشاب عن أنظار توفيق رجع هذا الأخير ادراجه حتى وجد نفسه أمام إحدى عرصات الجسر فأسند رأسه إليها ولم يعد يسمع شيئا من الصخب الذي يضج به المكان من حوله. وتداعت في ذهنه تساؤلات كثيرة. وخيل إليه أن هذا الشاب الذي لم يستطع حتى معرفة اسمه كان سيصبح صديقه لولا حاجز الخوف والريبة هذا الذي يرتفع عاليا كلما التقى عربي بآخر.

وهز توفيق رأسه محدثا نفسه :

- الرجل لديه حق. فمن أدراه أنني لست عميلا لمخابرات إحدى الأنظمة العربية جاء لمتابعة نشاطات أحد المشكوك في ولائهم، أولرصد تحركات معارض، أو لتصفيته جسديا. وإن كنت كذلك. أليس من المحتمل جدا أن أكون في حاجة لمن يعينني على التنفيذ أو لمن أقدمه ضحية عندما أنسحب من مسرح الجريمة. ولربما فهم هو من هذا سبب إصراري على تمتين العلاقة معه.

وصمت توفيق لحظة ثم انفجر ضاحكا غير عابيء بمن حوله وهو يقول :

ـ ومن أدراني بأنه هو نفسه ليس ذلك الرجل.

وأحس توفيق فجأة وكأن النهر قد أخذ يجري في الاتجاه المعاكس صاعدا نحو مجراه وأن الجسر قد انقلب فصار هو ومن حوله يقفون على رؤوسهم وأرجلهم عالقة في سقف السماء وضاع منطق أشياء كثيرة. وشعر بكل ما حوله يدور فرفع رأسه إلى أعلى ليتأكد من عدم صحة هذا الشعور. جال بنظرات في جوانب الجسر فلم ير بين المجموعات لا «بييترو» ولا «كازانوفا» ولم تداعب اسماعه أوتار قيثارة «خويليوس» رغم أن الساعة قد تجاوزت منتصف الليل.

وترك توفيق رجليه تقودانه مع نفس الطريق الذي سار فيه الشاب وعندما وصل إلى نهاية الجسر انعطف مع شارع «بورجوسان يعقوب» متجها إلى ساحة «سانت سبيرتو» ولكنه عندما وصل إلى منتصف الطريق وجد نفسه خاليا من الرغبة للذهاب إليها هذه الليلة. فانعطف مع شارع «ڤياماجيو» حتى التقى بجسر «الثالوث المقدس» فسار فوق الجسر صاعدا نحو الجزء الشرقي من المدينة بينما أخذت ثلاثة أشباح تقترب منه وتتميز كلما اقتربت من ضوء عمود الكهرباء فاستطاع التعرف على «كازانوفا» الذي كان يتأبط ذراعي فتاتين يسير بينهما على مهل ويتحدث إليهما معا في آن واحد يتوقف بين الحين والآخر ليشرح لهما بالإشارة ما صعب عليهما فهمه من كلمات إيطالية.

وحينما صار توفيق بمحاذاتهم توقف «كازانوفا» فقال دون أن يلقي عليه بتحية المساء:

ـ هل علمت بما جرى لخويليوس؟

ـ لا. ولكنني كنت سأسألك عن «بييترو».

ـ لا. لم أر «بييترو» منذ ليلة أمس. أما «خويليوس» فقد

رحَّلته الشرطة هذا الصباح إلى إسبانيا لأن مدة إقامته في إيطاليا انتهت.

لم ينتظر «كازانوفا» رد فعل توفيق بل واصل طريقه مع رفيقتيه، كما أن هذا الأخير لم يحاول أن يستفسر عن مزيد من التفاصيل فالمهم أن رواد الجسر القديم لن يروا بعد هذه الليلة «خويليوس» هذا الشاب القادم من بوليفيا بقيثارة وقبعة من السعف ليتربع على حافة الجسر القديم بعد منتصف كل ليلة من ليالي صيف «فلورانس» ويغني لأحلام تجسدت في شخص رجل أسالوا دمه وجفت عروقه منذ سنوات بعيدة في إحدى مغارات جبال بوليفيا الوعرة.

توقف توفيق واستند بمرفقيه على حافة جسر الأبدية فأغراه مشهد النهر بالبقاء، فأشعل سيجارة وتاهت نظراته عبر خيط رقراق تتراقص على صفحاته أضواء خافتة فتبدو منحنياته لامعة وضائعة في الأفق المظلم البعيد.

الفصل الحادي عشر

بدأ «الكوماندانتي» «سيرجيو» وإثنان من مرؤوسيه يتفحصون وجوه الجالسين على جانبي الجسر القديم وفجأة رأى رواد الجسر الرجال الثلاثة وهم يتوقفون أمام الشاب الذي يلقبونه الهندي الأحمر.

قال الكومانداتي «سيرجيو» وهو يتقدم مجموعته نحو توفيق ويبرز له بطاقته :

ـ أوراق هويتك من فضلك.

أخرج توفيق بطاقة تعريفه بتمهل ثم ناولها إليه. غير أن الكومانداتي لم يتفحص البطاقة بتمعن كما يفعل غالبا رجل الشرطة في مثل هذه الحالة. بل ألقى نظرة سريعة على الاسم والصورة ثم اقفل البطاقة قائلاً لتوفيق :

ـ تعال معنا.

نهض توفيق وسار بينهم وهو يلقي بنظره يمينا ويسارا على حافتي الجسر دون أن يرى أياً من الوجوه التي ألفها على الجسر، فعلت وجهه ابتسامة لم يعرف أي من رفاقه في تلك اللحظة سببها، ولربما كان توفيق يقول ساخرا في نفسه :

ـ لو كان «بييترو» حاضراً هذه اللحظة لا أعرف ماذا سيكون تعليقه على هذا المشهد.

هبط أربعتهم الجسر القديم منحدرين في اتجاه الشرق. كان

الجو لا يخلو من برودة. نسمات باردة بدأت تعلن في استحياء عن بواكير خريف كان قدومه هذا العام مبكرا.

في مبنى شرطة الأجانب كان التحقيق طويلا. نظرا لاصرار ضابط التحقيق على الحصول على معلومات من توفيق لم تكن في حقيقة الأمر في حوزة هذا الأخير.

قال الكوماندانتي «سيرجيو»:

- أنت مصر على أنك لا تعرف سميح عواد؟

- ولكنني لا أعرفه بالفعل. والدليل على ذلك أنك أنت الذي أخبرتني باسمه.

ضرب «سيرجيو» بيده على ركبته على الطريقة الايطالية وهو يقول بدهشة:

- كيف يمكن تصور هذا؟ تجلس مع شخص عدة ساعات وتتحدثان في كل شيء ولا تسأله عن اسمه. هذه ليست عادة عربية.

- ولكنه رفض أن يقول لي اسمه. وأنا لم أصر على معرفته. لأنني لم أكن أعلم أن الشرطة الإيطالية ستحملني مسؤولية عدم معرفة اسم شخص تجاذب معي أطراف الحديث بمحض الصدفة على الجسر القديم.

قال «الكوماندانتي» وهو يقدم سيجارة إلى توفيق في محاولة منه لتهدئة الحديث:

- نحن لسنا في حاجة لمعرفة اسمه منك. كما أننا لم نستدعك باعتبارك مسؤولا عما فعله أو بصفتك شريكا له. ونحن نعرف أنك تأتي إلى «فلورانس» صيف كل عام لتقضي إجازتك في هدوء ثم تذهب. ولم تكن لدينا تحفظات حول شخصك. ولكن من البديهي أن نستدعيك ونوجه لك بعض الأسئلة من الثابت لدينا أنه قد

جمعك لقاء وحديث مع أحد الارهابيين الذين نبحث عنهم .

ـ لقد أجبتكم بما عندي . ولكنني لا أعرف ما تريد معرفته أنت عن هذا الرجل .

قال «سيرجيو» مقاطعا :

ـ لماذا جاء إلى «فلورانس» وإلى أين ينوي الذهاب ؟

ـ هذا ما لا أستطيع أن أخبرك به لأنه لم يصرح لي بشيء عن ذلك .

قال «الكوماندانتي سيرجيو» بلهجة مهذبة ولكنها لم تخف نرفزة فراغ صبر الرجل ذي المزاج البحر اوسطي :

ـ وفيم كنتما تتحدثان ، قل لي فيم إذن ؟

قال توفيق وهو يسحب نفسا من سيجارته على مهل دون أن يجاري «سيرجيو» في استعجاله بالحديث :

ـ كنا نتحدث في أمور لا تتعلق بأي منا شخصيا .

قال «سيرجيو» مطأطئا رأسه إلى أسفل كعلامة على إصراره لمعرفة شيء عن أمور هذا الحديث :

ـ مثلا . مثلا .

ـ أتذكر ـ مثلا ـ إنه في إحدى المرات رفع رأسه إلى أعلى وقال :

ـ إن الجو بديع هنا .

ـ ألم يخطر ببالك أن تسأله بدورك عن حال الجو هناك . إجابته كانت ستجعلك تعرف مكان قدومه .

قال توفيق باسما :

ـ أعذرني . لم تكن عندي سرعة بديهية رجل الشرطة هذه .

ـ أنت أيضا صحفي .

- لم تكن معرفة مكان قدومه وسببه معلومة، ذات أهمية صحفية بالنسبة إلي.

قال «الكوماندانتي» وهو يفتح راحتي يديه في الهواء :

- إنك لا تريد أن تتعاون معنا.

- رغم أنني لست مجندا في الشرطة الايطالية إلا أنني أحاول التعاون معكم. ولكن المشكلة هو أن ما أستطيع تقديمه لكم لا يفيدكم في شيء.

قال «سيرجيو» بلهجة ودية :

- أنا أعرف الطبيعة العربية. لا يمكن أن يجرى حديث طويل بين عربيين وينتهي دون أن يعرف كل منهما اسم الآخر وأسماء أفراد عائلته. وهذه عادة اجتماعية أعتبرها جيدة.

فأضاف توفيق معلقا :

- خصوصا وأنها تقدم أحيانا خدمة جليلة للشرطة.

- ولم لا ؟

- لكننا لسوء حظ الشرطة هذه المرة لم نكن عربيين في عاداتنا.

قال «الكوماندانتي» وهو يقفل ملف التحقيق :

- يا سيد توفيق تحقيقنا لم يصل إلى نهايته بعد. ويؤسفني أن أستبقيك معنا هذه الليلة.

لم يبدر من جانب توفيق أي رد فعل، وهو ينهض ليتبع أحد الذين قادوه في صمت إلى إحدى الحجرات الملحقة بالمبنى ليمضي بقية ليلته فيها.

كانت تلك الليلة بالنسبة لتوفيق هي أطول ليالي «فلورانس» وأكثرها ضجرا.

وانتـظر إلى ما بعـد ظهـر اليوم التـالي لكي يستـدعيه «الكـومـانداني» «سيرجيو» لا لكي يستكمل التحقيق معه ولكن ليبلغـه بأن الشرطـة الايطالية لا ترغب في وجـوده على الأرض الإيطالية وعليه أن يغادرها في غضون الاثنتي عشر ساعة القادمة .

غادر توفيق مبنى شرطة الأجانب الواقع داخل محطة قطارات «فلورانس» لشراء تذكرة سفر في أقرب قطارات يغادر «فلورانس» إلى «هيد لبرج» ، كانت كلمات «الكومانتداني سيرجيو» حول مغادرة الأراضي الايطالية تطن في أذن توفيق وربـما لو لم تكن الأراضي الايطالية تعني أيضا «فلورانس» لما كان لها كل هذاالطنين في أذنيه .

أخذ يتصفح صحيفة «كوريرا دلاسيرا» التي تعود على قراءتها بعد ظهر كل يوم ، وفي الصفحة التي تخصصها الصحيفة للشرق الأوسط قرأ تحت عنوان جانبي : إرهابي فلسطيني آخر يفلت من قبضة الشرطة الإيطالية ، تدور شائعة في أروقة وزارة الداخلية حول فشـل سلطات الأمن الإيطالية في إيقاف إرهابي قادم من الشرق الأوسط قبل أن يعبر الحدود الإيطالية ، ولعل ما يقلق وزارة الداخلية أكثر هو أن دوائر الأمن كانت قد تلقت إشارة ـ على ما يبدو ـ من أجهزة «الموساد» الاسرائيلية حول وجود هذا الشخص على الأراضي الإيطالية . وتعتقد دوائر الأمن هنا بأن هذا الشخص يأتي في القائمة الأولى للرؤوس المطلوبة لدى «الموساد» ولكنه تمكن من الهروب بعد دخول الاسرائيليين إلى «بيروت» .

لا يزال موعد القطار بعيدا ، فالساعة لم تتجاوز السابعة بعد ، والـرحيل عن «فلورانس» لا يكـون قبل منتصف الليل . فحمل توفيق خرجه وترك رجليه تقودانه عبر شوارع «فلورانس» . لم يكن الجسر القديم كالمرات السابقة في هذا اليوم ، فقل عدد زواره ولم يعد مزدحما كعادته في هذه الساعة من الأصيل . وأحس توفيق بأن

النسمة التي تهب على الجسر في هذه الساعة لا تنتمي إلى فصل الصيف وهو الفصل الذي لا يرى في غيره «فلورانس» والجسر القديم. ومضى وقت طويل من الليل قبل أن يرى توفيق «كازانوفا» يمر مسرعا بمفرده فوق الجسر دون أن يلتفت إلى أي اتجاه.

صاح به توفيق وهو يكاد يطير فرحا بعد أن كان قد ساوره الظن بأنه يجلس فوق أحد جسور «فلورانس» الأخرى وليس فوق الجسر القديم.

قال «كازانوفا» وهو يعود أدراجه نحو توفيق :

ـ «FINITO» لم يعد هناك شيء على الجسر القديم.

جلس الاثنان بالقرب من تمثال النهضة. قال «كازانوفا» :

ـ لقد حسبتك سافرت أنت أيضا.

فتساءل توفيق :

ـ هل اِختفى أحد من الوجوه التي نعرفها.

ـ لم أعد أرى «بييترو» ولا «خويليوس»

قال توفيق باسما :

ـ وأنت ألا تنوي الاختفاء ؟

ـ إلى أين ؟

ـ لا أدري.

قال «كازانوفا» وهو يقدم سيجارة إلى توفيق :

ـ لم تطأ قدماي أي بقعة أخرى في العالم غير «فلورانس»

قال توفيق وهو يسعل ضاحكا بعد أن سحب نفسا من سيجارته :

ـ كان ينبغي أن نلقبك «كازانوفا عموم فلورانس».

رد «كازانوفا» ويده تلوح في الفضاء كتعبير عن ضخامة الشيء الذي يريد أن يقوله :

ـ في «فلورانس» يوجد «كازانوفات» كثيرون !

ـ ولكن «كازانوفا» الجسر القديم يعد ضمنيا «كازانوفا» عموم «فلورانس» لأن كل الـذين يأتـون من مختلف بقـاع العـالم إلى «فلورانس» يزورون حتما الجسر القديم. وهذا يعني أن الناس في مختلف القارات لا يعترفون بأي «كازانوفا» آخر في «فلورانس» عدا «كازانوفا» الجسر القديم.

داري «كازانوفا» خجله بابتسامة تقلص معها منخراه وانزويا إلى الداخل كالعادة. ولربما قال «كازانوفا» في داخل نفسه :

ـ إن توفيق هو أيضا كالآخرين لا يعرف عن «كازانوفا» إلا ما يراه.

ثم قال «كازانوفا» متسائلا :

ـ هل تعتقد أن الانسان يغدو سعيدا إذا ما اعترف بوجوده الآخرون ؟

لم يجب توفيق في الحال، فقد أحس أن «كازانوفا» استدرجه نحو سهل منبسط سرعان ما أفضى به إلى أرض وعرة.

قال بعد ذلك وهو يهز كتفيه في حيرة :

ـ ولكن عدم اعتراف الآخرين بوجوده لن يكون مدعاة لسعادته.

قال «كازانوفا» وهو يلقي بعقب سيجارته على الأرض :

ـ قد يكون ما تقوله معقولا.

ـ هذه ليلتي الأخـيرة على الجسر القـديم، ولا أبحث عن عقلانيات فيها.

ـ أما أنا فلا تزال أمامي ليلتان أخريتان.

ـ ماذا تعني بذلك ؟

ـ سأقوم الليلة بعد القادمة ـ كعادتي في آخر كل صيف ـ

بجولة توديعية للجسر القديم.
ـ حقا. أتقوم بهذا كل عام ؟
ـ نعم. ومنذ سنوات طويلة لا أعرف لها عددا.
ـ كان ينبغي أن تقول لنا هذا في وقت مبكر وعندما كان «بييترو» موجودا.
ـ هل تعتقد أن «بييترو» لو علم بذلك كان سيبقى ليقوم بها معنا.
ـ أعتقد أنه كان سيبقى.
فهز «كازانوفا» رأسه
ـ إذن يا لها من خسارة.
قال توفيق مهونا على «كازانوفا» :
ـ أنت قادر على القيام بها وحدك ككل عام مضى.
فتساءل «كازانوفا» :
ـ ألا تريد أن تحضر هذه الليلة الوداعية معي ؟
ـ يؤسفني أني لا أستطيع البقاء إلى ما بعد غد حتى لو أردت ذلك.
ـ لماذا ؟
ـ إنني مسافر هذه الليلة.
إبتسم «كازانوفا» وسحابة من دخان سيجارته تخرج دفعة واحدة من فمه :
ـ بإمكانك أن تؤجل سفرك الليلة وتسافر بعد غد ليلا !
ـ يؤسفني أنه لا يمكنني أن أؤجل سفري ولو ساعة واحدة !
قال «كازانوفا» ولهجته تحمل معنى الاعتراض :
ـ لماذا كل إجاباتك هذه الليلة مشفوعة بالأسف وعدم الاستطاعة.

ـ ألم أقل لك إنها ليلة ليست كالأخريات .
وانقطع الحديث فجأة بين الاثنين وانشغل كلاهما بتدخين سيجارته .
فجأة قال «كازانوفا» بصوت خال من التأثر :
ـ كنت على يقين بأنني سأقوم بذلك حتى هذا العام وحدي .
ـ هل هذا يحزنك ؟
هز «كازانوفا» كتفيه :
ـ إنه في الواقع لا يحزنني ولا يفرحني .
وأحس توفيق بأن الحزن والفرح كلاهما صعب بالنسبة لانسان مثل «كازانوفا» .
ـ كم أنا متشوق لرؤية ما ستفعله في تلك الليلة الأخيرة على الجسر القديم .
ـ كنت متأكدا بأنك أيضا لن تكون ليلتها هنا .
ـ كيف عرفت ؟
ـ لأن كل الذين أعرفهم عن كثب يغادرون دائما الجسر القديم قبل ليلته الصيفية الأخيرة .
رأى توفيق عيني «كازانوفا» مبتلتين بالدموع ، ووجد نفسه عاجزا عن الاتيان بأي تصرف يسري به عن «كازانوفا» فامسك عن الكلام ، ولربما الذي هاله في ذلك الموقف هو أنه في ذات اللحظة كان الجسر القديم خاليا إلا منهما الاثنين ، وبدا له مؤلما أن لايخلو الجسر القديم ولا يقفر من رواده وعابريه بمثل هذا الاقفرار إلا الليلة التي بكى فيها «كازانوفا» . ثم راود تفكير توفيق تفسير آخر لهذا الذي يجري فتصور أن خلو الجسر القديم في تلك اللحظة بالذات لم يكن يحمل ذلك المعنى المؤلم وإنما على العكس من هذا فقد صرف الجسر القديم كل ملايين عشاقه في لحظة مقطوعة من الزمن لكي

يتفرغ فقط لاستقبال دموع «كازانوفا» وفي حضور شاهد واحد عيناه لا تدمعان أبدا !!

فجأة نهض «كازانوفا» وقال بصوت لا تدل نبرته على أن صاحبه كان يبكي :

ـ أتمنى لك سفرا سعيدا يا صديقي .

فنهض توفيق مندهشا وهو يمسك بيد «كازانوفا» الممدودة نحوه :

ـ ولكنك تودعني قبل الأوان. فلا تزال أمامي ساعة قبل أن يغادر قطاري «فلورانس» .

قال «كازانوفا» وهو يهز يد توفيق كإصرار منه على المغادرة :

ـ من الخير لك أن تقضي الساعة الأخيرة بمفردك على الجسر القديم .

فتساءل توفيق :

ـ أهذه نصيحة لكل من يزور الجسر القديم ؟

فرد «كازانوفا» :

ـ لمن يعشقونه فقط .

ـ إذن لماذا تطلب من الآخرين أن يبقوا معك في آخر ليلة على الجسر القديم. قال «كازانوفا» محاولا قطع الحديث :

ـ كان ذلك نوعا من المزاح .

فتساءل توفيق في داخل نفسه :

ـ أليس من الممكن أن يتطرق «كازانوفا» إلى موضوع قد يبكيه ومع ذلك يعتبره من قبيل المزاح !

ولم ينتظر «كازانوفا» رد توفيق فانسل مغادرا دون تردد .

وقف توفيق في مكانه ينظر إلى «كازانوفا» وهو يبتعد عنه بنفس الكيفية التي يغادره بها في كل ليلة سابقة وكأنهما سيلتقيان غدا .

كان توفيق على يقين بأن مشاعر «كازانوفا» في هذه الليلة مختلفة عنها في الليالي السابقة. إلا أنه بالنسبة له ينبغي للأمور أن تكون عادية ولو لم تكن في حقيقة الأمر كذلك.

ظل توفيق واقفا في مكانه متكئا على سياج تمثال النهضة بينما أخذ «كازانوفا» يختفي رويدا رويدا وهو يهبط منحدرا في اتجاه «بياتزا دلا سينوريا» حتى انعطف يمينا وابتلعه الشارع.

عاد توفيق أدراجه فاستند بمرفقيه على حافة الجسر الشمالية.

كان في اتجاه ناظريه جسر الأبدية يتراءى له تحت اعمدة الضوء خاليا من المارة وهذا كان يعني لتوفيق أن «بياتزا سانت سبيرتو» هي أيضا على غير عادتها لا تحظى برواد كثيرين هذه الليلة. ترك رأسه يتدلى إلى اسفل فوقعت عينيه على صفحة نهر «ارنو» المنساب تحت الجسر القديم متجها على الدوام في اتجاه جسر الأبدية. وظل على هذا الوضع وقتا لم يستطع تقديره عندما استيقظ فجأة وهو ينظر إلى ساعته بعد أن أحست بعض أطرافه بنسيمة باردة لم يعهدها من قبل بين النسمات التي تهب على الجسر القديم في مثل هذه الساعة من الوقت.

وضع خرجه على كتفه وطاف بنظراته على الجسر من جنوبه إلى شماله. كان رواده لا يتجاوز عددهم أصابع اليد الواحدة ينتشر معظمهم فرادى على حافته الجنوبية، وتأكد أن هذه الليلة تتميز في كل شيء عن ليالي الجسر القديم السابقة.

ربما كانت تلك أول ليلة منذ بداية الصيف التي لم يترنم فيها «خويليوس» ولم ترتفع فيها قهقهات «بييترو» في جنبات الجسر القديم.

إنحدر توفيق هابطا الجسر في اتجاه محطة القطارات، ولكنه

توقف في منتصف الطريق وقبل أن يختفي عنه الجسر ليلقي نظرة أخيرة بعكس ما يفعل عادة عندما يفترق عما يعز عليه كثيرا.

ما كان يجرى على الجسر القديم هذه الليلة لم يكن من قبيل العادة.

أليس في هذه الليلة أيضا اختفى «بييترو» وبكى «كازانوفا» ؟

تمـــت

عيسى يوسف اللموشي

مطبعة فضالة

3 زنقة ابن زيدون المحمدية (المغرب)

الهاتف : 32.46.43 / 32.46.45 (03)

تليكس M 24910 — فاكس : 32.46.44 (03)

هذه الرواية

* قصة حب وثورة على هامش الحياة. تعيش أحداثها في الذاكرة.. وتستمد من الطرقات والأزقة والأماكن العامة أسباب الاعتبار!
* صراع بين القومي والإنساني.. في تساؤل حضاري بصدد عملية السبق والأفضلية.
* تواصل إنساني مستمد بقصد البحث عن لحظة أمل في عيون المتعبين.. تحطمت آمالهم فكان مصيرهم الذكرى والطرقات العامة باحثين في النغم الموسيقي عن مهدى، شجي!..
* رواية.. تحفل بكثير من الأسرار والخفايا الإنسانية والحضارية الرائعة...
* صالح السنوسي : أديب ليبي معاصر، يهتم في أدبه الروائي بتحليل قضايا الثورة والإنسان والاغتراب العربي في خضم الحضارات العالمية المعاصرة، من أعماله المنشورة :

- متى يفيض الوادي، دار الآفاق الجديدة بيروت، رواية 1980.
- غدا تزورنا الخيول، الدار العربية للكتاب تونس، رواية 1984.

- الناشر -